كتاب الجمهورية

حديث النساء

حزين عمر

الإشراف الفنى :

مصطفى كامل

المتابعة :

صفوت عكاشة

حريم.. لماذا؟؟

الكتابة عن النساء سباحة فى المحيط المتجمد الشمالى: قد تنقطع بالسباح سبل اتصاله بالعالم من حوله، وقد ينهار جبل من الجليد فيتحول الإنسان من نبض وحرارة إلى خمود وجمود وفتات.

فالمرأة هى كل شىء ولا شىء أبداً، هى الحياة العميقة والموت البطىء، هى النار والنور، والجمال والقبح، والثورة والتسليم، والرقة والتوحش.. هى التناقض نفسه.. والخطورة فى الحديث عنها والتعرض لها أنك لا تعرف متى تصبح المرأة خيراً أو شراً، ومتى ترفض وتغضب.. فبعضهن فى زمننا الحديث سعيدات بأن يكن ظل الرجل وتابعه الأمين!! وبعضهن يسخطن على كل ما هو مذكر وينفضن ذيولهن من كل ما هو مؤنث إلى حد أن واحدة منهن - اسماً فقط.. تريد أن تنقلب على اللغة نفسها وأن تلغى نون النسوة حتى يتساوى الرجل مع المرأة فى الأنوثة أو تتساوى المرأة معه فى الذكورة، رغم انعدام أدوات الآخر ودلائله لدى كل طرف!! وتنسى داعيات إلغاء (النون) أن إفساد اللغة والعبث بها إفساد لمعنى من المعانى المؤنثة فمفردة (اللغة) نفسها مؤنث مجازى، وكذلك مفردة (لفظة) و(كلمة) و(جملة) و(عبارة) فكأن اللغة العربية خلق نسائى بحت فى تراكيبه ومصطلحاته فى كثير من الأحوال.. أو كأن العربى صانع هذه اللغة

منذ آلاف السنين صاغها على منوال أنثى لحبه للنساء.. ولا أريد أن تذكرنى بحكاية وأد البنات فى الجاهلية، فقد كانت حالات فردية، ولها ملابساتها الخاصة والمؤقتة.. وليست سلوكاً عاماً وشائعاً لدى الجاهليين كالحرب فيما بينهم مثلاً.

***

وإذا كانت بعض النسوة - المسترجلات - يردن إلغاء «نونهن» من اللغة العربية ولا نعرف أن أية امرأة فى أية لغة أجنبية دعت مثل هذه الدعوة - فهن أكثر تحاملاً وعداء واستفزازاً أمام مفردة (الحريم) التى أصبحت رمزاً للتخلف ولظلم المرأة وجهل من يتلفظ بها.. ولو عرفت المرأة ما بها من تعظيم وتكريم، بل وتقديس، لتمسكت بها وقبلت الألسنة التى تلوكها!!

الحريم فى اللغة تعنى ما ينبغى حفظه والضن به إلى حد القتال من أجله ومنع أى أذى يحيق به.. ومن مادة (حرم) حرم الحرم والحرمان أى مكة والمدينة.. والحرمة: المهابة.. والمحرمة والمحرمة: ما يحرم انتهاكه من عهد أو ميثاق.. ويقال - بعد انتقال المعنى لدى العامة - (محرمة) عن قطعة الشاش التى يضعها العريس فى إصبعه ويجفف بها دم العذراء - العروس - بعد فض بكارتها!!

ويطلق اسم (الحرامى) على اللص لأنه ينتهك الحرمات ويعتدى عليها.«١» والحريم بمعنى النساء اللاتى يختص بهن رجل بعينه كزوجات وبنات وخادمات وإماء ليس نظاماً اجتماعياً عربياً بل هو قديم.. وفى الحضارة المصرية القديمة (أفرد النبلاء أقساماً من بيوتهم للنساء ويمكن أن يطلق على المناظر المرسومة على الأوستراكا التى تبين الحسان يتبرجن اسم «مناظر الحريم».. بيد أن هذه لم تكن عرفا للحريم بالمعنى المتداول. ومما هال هيرودوت أن النساء المصريات كن يسرن بحرية فى المدن وفى الحقول، وقرب الفيوم حيث كان الفرعون يذهب لصيد الحيوان - وفى منف، وفى أماكن أخرى كان للفرعون «حريم» بالمعنى الحقيقى. بيد أن الحياة فى هذا الحريم تختلف تماماً عن الصورة الكلاسيكية للحياة الفاترة

فى الحريم الشرقى، وكانت أماكن الحريم فى الدولة الحديثة واسعة، وخصصت للإنفاق عليها أوقاف وضرائب معينة. وكانت الملكات يذهبن إليها ويقمن بها. وكان صغار الأسرى من الأجانب والمستوطنين - مثل النبى موسى - يربون فى «الحريم». ويقضى السيدات وخادماتهن وقتهن بالحريم، فى النسيج على نطاق صناعى، ويشرف على ذلك البيت هيئة كاملة من الرجال)(٢).

وفى هذا الواقع التاريخى القديم يطلق (الحريم) على المكان وعلى السيدات اللاتى تقمن به.. ولم يكن يعنى أى سجن أو تفرقة بل دافع تخصيص هذا المكان قديماً هو الميل إلى الدعة والهدوء وربما توفير أنماط من الإنتاج - كالنسيج - لم يكن يستطيع الرجل الخوض فيها.. فلو كان هذا المكان منبوذاً أو سجناً فهل تقيم به الملكات وهن الحاكمات للبشر جميعاً رجالاً ونساء حينذاك؟! وربما كانت تربية الأسرى من الأجانب والمستوطنين الدخلاء مثل النبى موسى، فى هذا الحريم بهدف إبعادهم عن مقومات الجندية والقتال والمجالدة وليس فيه شبهة تعذيب لهؤلاء الأسرى كما يحدث فى زمننا الحديث هذا!!

النشأة إذن لهذا النظام قديمة - قبل العرب بآلاف السنين - وليس فيها ما يشين.. واللغة التى نحتت هذه المفردة - كما رأينا - تنحاز للمرأة وتعظمها.. وبعض الأساطير القديمة تبرىء المرأة من الجناية البشرية الأولى: إخراج آدم من الجنة بعد أن شاركت حواء الشيطان فى إغوائه.. تقول أسطورة بابلية (إن الآلهة خلقت الإنسان منعماً سعيداً، لكنه أذنب وارتكب الخطايا بإرادته الحرة، فأرسل عليه طوفان عظيم عقاباً له على فعله، فأهلك الناس كافة ولم ينج منه إلا رجل واحد هو تجتوج الحائك، وإن تجتوح هذا خسر الحياة الخالدة والعافية لأنه أكل فاكهة شجرة محرمة)(٣).

فحكاية الخلق وآدم ونوح والطوفان أو الهلاك الأكبر والشجرة المحرمة.. كلها بعيدة عن المرأة ومن صنع الرجل الذى خسر الحياة الخالدة والعافية.. وهذه وجهة

نظر شرقية أخرى للمرأة، غير اللغة العربية، والجنس العربى، والحضارة المصرية.. إنها حكاية بابلية.

فأقوام شرقية كهذه تكن للمـرأة هذا التقديس والوله، وتنصبها ملكة فى مراحل تاريخية كثيرة: حتشبسوت، نفرتيتى، كيلوباترا، بلقيس، شجرة الدر.. هل يمكن أن تنتقص شيئاً من هذه القيمة حين تسمى المرأة حـريما؟ فالغضب من هذا المعنى - حتى لو ارتبط فى أزمنة مملوكية وعثمانية ببعض القيود - لا يجعل تاريخه منفراً وسيرته قبيحة.. بل طيبة.. وليس من عيب أن ينادى بعض أبناء الأقطار العربية للسيدات: ياحرمة!!! وإن كان الذوق العام حالياً ينفر من هذا، لكن المعنى الأصيل، والتاريخ والواقع لا ينفر.

***

بعض النساء إذن غاضبات بلا دواع للغضب، ثائرات فى غير موضع الثورة، ربما كانت ثورتهن على الطبيعة ذاتها التى تحرمهن من الجمال، وتسخو عليهن فى القبح!! وكلما نظرت إحدى هؤلاء الدميمات فى المرآة صباحاً لعنت الناس جميعاً!!

وإذا كانت المرأة هكذا غير قابلة (للحصر) والتحكم والتنبؤ.. فهل يرضيها ما أكتبه لها وعنها؟! لا أعرف.. لكنى رأيت أن أقدم لها الورود والأشواك معاً.. فى محاولة لمعرفتها: أى معرفة نصف البشر، وتفسيرها وهى أطول وأضخم و«أسمن» علامة استفهام فى تاريخ البشرية.

هى سباحة صعبة إذن.. لكن أجمل ما فيها أن لدى ما يلهمنى المجاديف فيها: فلن أنتظر شيطان الشعر لأكتب.. إن لدى شيطانتى الملهمتين الجميلتين: آية، وبسنت.. ومعهما أمهما الشيطانة الكبرى: عزة!!

أصنـــــــــاف

- عذراوات - عاشقات
- زوجـات - بنـــات
- أمهـــات - ضــرات

أصناف

كل النساء امرأة واحـدة، وكل واحدة ألف امرأة!! فجمـيعهن - فى الأصل - يحـضن، ويلدن، ولهن نهـود وخصـور وأرداف وهذا التـركيب الأنثوى يرتبط بإعـداد المرأة للحمل والرضـاع.. فـحوضـها أوسع من حـوض الرجل ولابد أن يكون الردف أكبر.. ونهـدها هو أول نقطة حياة تصب فى أفواهنا جمـيعاً.. وبين النهد والردف البارزين للأمام والخلف ينخنق الجسد فيصبح مضيقاً أو خصراً، إلا من فقدت السيطرة على خصرها وتمرد عليهـا ليصبح جبلاً - والعياذ بالله - بين هضبتين!!

نرى - كرجال طبيعيين أيضاً - فى هذا الصـعود والهبوط بجسد الأنثى، جمالاً وفـتنة.. ألم يكن من المنطقى أن يبـدو انسحـاب الجسم بلا نهـود ولا أرداف ولا خصر هو الأجمل أى أن يكون كالجسد الرجالى؟!

لا يستحـسن الرجل هذا الاتساق ولا يقبله، وربما تتهم المرأة القـريبة منه بالقبح الجسدى، فـما السر إذن فى ارتباط الرجل به حتى إن العـرب أسلافنا كانوا يرون فى كبر المـؤخرة - لأقصى حد - دليل الفـتنة والجمال فيقـول أحدهم فى وصف نموذج الجمال الأنثوى:

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة

لا يشتكى منها طول ولا قصر

فـلا يلتـفت فى إقبـالهـا إلا إلى الطول كـملمح عـام، ولا يرى من إدبارها إلا (العجـز) وحده وهو ليس كل الجسم.. فلا شعـر ولا رأس ولا عنق ولا سيـقان يلتفت إليها الواصف.. ما السر إذن فى الارتباط بهذين الملمحين؟!

إنه امتلاك ما لا يملك الرجل.. ولا يعنى عدم امتلاكه الرغبة فى امتلاك المباشر.. فنحن نحب تغريد البلابل ولا نريد أن نفقـد النطق لنغرد!! وهذه الممتلكات التى تكنهـا المرأة دون الرجل تبدو كـما لـو كانت الطبـيعـة فصـمت بين كائن واحـد فـأضحى منه رجل وأنثى.. ولذا يهـفـو الجسـد الرجولى لضم الجسد الأنثـوى، وحينها كأن كل طائر عاد لعشه.

يهفو الرجل إلى هذا التكوين النسائى ويراه جمالاً وفتنة لأنه بيته الأول الذى لا بديل له ولا مـثيل ولا أرفق به منه.. فـداخل هذا الخـصـر - فى الرحم - عـاش تسعة أشـهر فى أضيق منزل وأوسـعه، حدوده مترامـية رغم أنها عظمـتا الحوض فقط.. وخلف هاتين العظمتين تقيم مؤخرة الأم.

وبعد تسعة أشـهر لم ير ولا أحس ولا أدرك الكائن الجديد شيئاً من الحـياة غير نبعى الثديين.. همـا كل صلته بالعالم المتسع الذى لا يدريه.. وبعـد الانفصام عن الرحم وعن النـهـد هل يسـتطيع الرجل أن ينسـى أصل وجـوده؟! يتـحـول هذا الارتباط تدرجاً من الطفل بالأم إلى الرجل بالمرأة والذكر بالأنثى، لتبدأ دورة حياة جـديدة.. وكأن هناك خـيطاً سحـرياً يشـد كل رجل إلى مواطن نشـأته الأولى.. النهد والخصر والمؤخرة.. أو إلى مرعى البدايات كله: الجسد الأنثوى.

فـهل ترى المرأة فى مـثيلتهـا جـمـالاً؟! هى ترى وتدرك.. لكنهـا لا تحس هذا الجمال ولا يحرك فيهـا شيئاً مما يحرك فى الرجال.. قد يحرك شيئـا مغايراً: الغيرة والحقـد والحسد.. بدون شـهوة ولا حب احتـواء وتكامل واستئـثار.. ولا نتطرق لحالات الشذوذ النسائية فالشذوذ مرض!!

المرأة لا تحس فى نهـدى أخرى بريق رغبة، لكنهـا قد تنظر إليها - جمالياً - بحياد لا يميل إليه الرجل.. فترى فى النهـد تضخماً وترهلاً واسترخاء، أو توسطاً واعتدالاً، أو استدارة ودقة وبروزاً وكبراً وغروراً.. فربما بدا النهد لدى العذراء، كالأنف الشامخة عزة.. ويكنّ داخله الاستعداد لأن يطير كعصفورتين.

الرجل عليم - إذا شاء - بهذه الفوارق الجمالية، ويحكّمها فيما يقام من مسابقات للجمال النسائى.. لكن كل ما هو أنثوى يحرك فيه كل ما هو ذكورى، ويحن إلى الوجه البشرى الآخر الرقيق الأصيل.

***

كل النساء إذن ذوات حمل وولادة وتضاريس.. يستوى فى هذا البيضاء والسوداء والصفراء والخمرية.. والطويلة والقصيرة والنحيلة والسمينة.. والحضارية والبدوية.. والشرقية والغربية.. وجداتنا وحفيداتنا.. فكأن كل النساء واحدة فى هذا الوجه من الوجوه.. فكيف تكون إذن كل واحدة ألف امرأة؟!

المتصدى لهذا التساؤل من أول وهلة هو أن أدوات الجمال الصناعى من ألوان وعطور، ومن شعر مستعار ورموش مزروعة وعدسات ملونة وملابس من كل شكل.. كل هذا سيحيل المرأة الواحدة إلى نساء كثيرات.. ولا ريب فى هذا.. لكنه الظاهر فقط.. فرغم أن جداتنا قد امتلكن بعض هذه المجمِّلات الشكلية منذ أيام الفراعنة حتى إن إحداهن تقول لزوجها أو حبيبها: (لا يفكر قلبى إلا فى حبك.. أهرع بسرعة نحوك بشعرى غير المرتب.. ولكننى سأعد خصلات شعرى وأكون على استعداد فى لحظة.. ثم تصف مخطوطات البردى الطبية مراهم عديدة لجلدة الرأس، وكثيراً من المحاليل لمنع الصلع وعلاج الشعر الأشيب) «٤» رغم ذلك فإن قدرة المرأة على التقلب والتغير ليست منحصرة فى هذه الشكليات.. فنساء البدو الحافيات لا يملكنها.. وامرأة الغابات والجليد ومجاهل العالم لا تعرفها.

كل واحدة من هؤلاء النسوة يمكنها - عاطفياً - أن تكون عاشقة والهة، وأن

تكون عاشقة متعففة، وعاشقة متهتكة، وعاشقة متمنعة وهى الراغبة كما يقال: «يتمنعن وهن الراغبات» وقد تكون مجرد محبة فى الخفاء، أو محبة فى اعتدال واعتداد، أو محبة منكرة للحب فى الظاهر.. وربما مرت فى اليوم أو الشهر أو السنة بكل هذه الحالات من الوجدان.

تستطيع المرأة أن تثق بأحد بعض الثقة، أو كل الثقة، أو لا تثق فيه إلا بعد حين، أو لا تثق للأبد.. وفى كل من هذه المواقف هى شىء مختلف عن غيره.

وإذا كرهت تكره بعمق وربما بلا سبب.. وتتردد أحياناً فى كراهيتها، حيناً وحيناً تنسى، وربما انقلبت من الكراهية إلى الرضا والحب رأساً.. وربما انقلبت من النقيض إلى النقيض.. وقد تدعى الكره وتكن الحب والتمنى!!

وهى كذلك تغار وتحسد شخصاً ما: مثلها أو رجلاً وربما يختلط مع الغيرة والحسد الإشفاق والخوف والطمع.. وربما آمنت برجل كل الإيمان وناوأته وأرقته رغم إيمانها به.. وليس هناك من مثل أدق وأصدق من حياة النبى - صلى الله عليه وسلم - مع زوجاته.. هو النبى وهن أمهات المؤمنين وقدوة المؤمنات.. وعلى الرغم من ذلك يئس يوماً منهن جميعاً فهجرهن كلهن واعتكف بعيداً حزناً وكمداً!!

ومن حالات التقلب والتناقض هذه تستطيع أن تستكشف فى كل امرأة ألف امرأة.. أما مع خصوصيات العلاقة الجنسية الحميمة فقد ترى فيمن تعاشرها شخصيات ووجوهاً جديدة كل مرة أو كل زمن.. والمحصلة الأخيرة أن طبائع المرأة وصفاتها لا حصر لها.. وبعضها له مبرراته كحالة الحيض الشهرية وما يلحقها من تغيرات نفسية.. وأكثرها لا مبرر له إلا عند خالقها.. وربما شاءت الإرادة الخالقة أن تكون المرأة هكذا لتظل عنصر جذب للرجل، وتعوض ضعف الجسد بقوة التجديد والتغيير وتبقى دائماً محل لهفة الرجل وتطلعه وحيرته وعقدة لكل أزمة، وحلاً لكل أزمة!!

واختلاف المرأة يرتبط بالزمان ارتباطاً وثيقاً وكذلك بالبناء الإجتماعى أو

موقعها فى المجتمع: عذراء، وزوجة، وأماً، وحماة، وعاشقة، وبنتاً، وضرة.. وكل هذه الأدوار النسائية تقوم على علاقة المرأة بالرجل.. فالرجل ينقلها من عذراء إلى ثيب أو زوجة.. وهو لا ينتقل مثل هذه النقلة من «أعزب» إلى «ثيب» مثلاً!! وبه تضحى أماً أو عاشقة أو ضرة.. وبرجل آخر تضحى حماة.. وبضياعه - الضياع الأخير - تتحول إلى أرملة وهى صفة محزنة للمرأة.. رغم أن الزوجات يتمنين هذا الضياع الأخير لأزواجهن، وإن كن لا يتمنين صفة الأرملة!!

عذراوات

العذراء، والبكر، والآنسة.. مفردات لمعنى واحد تفيد البداية الأولى لليوم، فى الصباح، من مفردة البكور، ويبكر، وتفيد القادم أيضاً من قولهم (باكر).. وتعنى المفردات كذلك المؤانسة والرقة وربما التسلية البريئة فى مفردة (الآنسة).. وربما تفيد معانى (العذراء) البعد عن الذنوب والخلو من الأخطاء والأعذار والاعتذارات ودوافعها.. ولذا يقال: هوى عذرى أى عفيف(٥).

ويشاع عن العذراء أنها خجول إلى حد أنها تحكم لسانها وتحكم أذنها أيضاً عن سماع أو النطق بما يجرحها من معان وخاصة معانى الجنس.. فيقال: لا تجرح عذريتها.. فى النهى عن التلفظ بالمفردات الخارجة.. ويشاع كذلك أن العذراء تصدق كل ما يقال لها: (خدعوها بقولهم حسناء.. والعذارى يغرهن الثناء).

حسبما قال شوقى.. ويستغل الرجل هذه الصفة فى العذراء فيتخذها مدخلاً إليها حتى يوقعها هو فى حبائله وتوقعه هى فى شر أعماله!!

ومادامت العذراء صادقة قابلة للخداع غير خبيرة فى الحياة، فربما عشقت عدة مرات بدون داع!! تعشق مطرباً ما لحلاوة صوته، أو ممثلاً لأدائه أدواراً عاطفية فى تمثيله والظهور كمحطم لقلوب العذارى، رغم أنه نصف رجل، أو رجل على المعاش، أو مخنث!! وتعشق ابن الجيران الهارب من اختناق شقته ومن شتائم أمه لأبيه إلى البلكونة، وتعشق الشاعر محترف الكذب الإبداعى الجميل!!

وبهذه السذاجة الظاهرة، تستقبل الفتاة حياتها الزوجية من أول يوم، فتندس إليها أمها قبل الزفاف، أو قريباتها، وصويحباتها الخبيرات ينقلن إليها خبرة الحياة الزوجية من ممارسة جنسية إلى نصائح فى ممارسة السلوك اليومى، إلى تحريض على الزوج القادم «المتوحش» فتقول لها الخبيرة: (ابنك على ما تربيه.. وجوزك على ما تعوديه) و(يامأمنة للرجال ياحاطة المية فى الغربال).. ومثل هذه النصائح «المخربة» موروثة منذ أيام الجهالة المستقرة فى عقول جداتنا، وعلى الرغم من ذلك تنقلها المتعلمات والمثقفات بتسليم غبى.. لكن أجمل ما يساق وأخلده وأحكمه ورد على لسان امرأة «صحراوية» منذ حوالى ألفى عام.. إنها زوجة عوف بن محلِّم الشيبانى التى أوصت ابنتها أم إياس قبل زفافها إلى عمرو بن حجر الكندى.. فقالت لها: (أى بنية.. إنك مفارقة بيتك الذى منه خرجت، وعشك الذى منه درجت، إلى رجل لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فكونى له أمة ليكون لك عبداً، واحفظى له خصالاً عشراً يكن لك ذخراً. فأما الأولى والثانية فالرضا بالقناعة وحسن السمع له والطاعة. وأما الثالثة والرابعة: فالتفقد لمواقع عينيه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم أنفه إلا أطيب الريح. وأما الخامسة والسادسة: فالتفقد لوقت طعامه ومنامه، فإن شدة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة. وأما السابعة والثامنة: فالاحتراز لماله والإرعاء على حشمه وعياله. وأما التاسعة والعاشرة: فهى ألا تعصى له أمراً، ولا تفشى له سراً، فإنك إن خالفت أمره أو غرت صدره، وإن أفشيت سره لم تأمنى غدره، وإياك والفرح بين يديه إذا كان مهتماً، والكآبة لديه إذا كان فرحاً. فقبلت وصية أمها فأنجبت له الحارث بن عمرو جد امرىء القيس الملك الشاعر)(٦).

وإذا سلمنا بصحة نسب هذه الوصية إلى امرأة منذ ذلك الزمن البعيد فهى وصية نادرة وثمينة، لم تتعلم منها جداتنا القريبات وحمواتنا وزوجاتنا.. فحينما امتثلت العذراء الجاهلية إلى وصية كهذه أنجبت ملكاً شاعراً، ولم تنجب متشردين فى شوارع القاهرة وحواريها!!

هذا التسابق إلى إرشاد العذراء قبيل زواجها فيما ستشق من دروب عادة قديمة،

ومستـمرة، وتعنى ضمن ما تعنى براءة العـذراوات.. وهذا حق.. وإن كان حكماً غير قـاطع مانع.. فالفتاة كـالشاب ترث بعض خصال أمـها.. الخبيثـة.. وجداتها أيضاً.. فهى تدور وتلف حـول الشاب - الفريسة - موظـفة كل هذه المفاهيم من البراءة عنهـا، حتى تقع الفـريسة فـإذا بالرقة توحش، وبالبراءة مـكر، وبالإنصات والطاعة صخب وتمرد، وبالقناعة جشع.. فهل تحـدث كل هذه التحولات النفسية فجأة أو خلال أيام وشهور!!

الثابت أن العـذراء بها ما يشاع من هذه الصـفات، والشائع كـذلك أنها تنقلب هذه الانقلابات.. فكيف يقع هذا التناقض؟! لا أتصور تناقضاً ما.. فهى تكن كل هذه الخصال الوراثية السيئة فى أعماقها وهى عذراء، حتى «تتأهل» أو تقتنص من يعولهـا ويكتوى بنارهـا.. ثم تنكشف القشـرة الرقيقـة بين الطيب والخبـيث، بين البراءة والدهاء فى الوقت الذى تراه الـفتاة نفسـها.. بدليل أنها تسـتطيع التراجع عن رداءتها إذا وجدت مـا يمنع هذه الرداءة: بالنصيحة، أو الإقـناع، أو التخويف بالطلاق وغيره من وسائل القمع الرجالى الموروثة أيضاً!! الأمر ليس مجرد إزالة غشاء البكارة إذن لتتحول الطبيعة النسائية كل هذا التحول!!

زوجات

تبدأ المرأة نمطاً آخـر - غير بيت الأب والأم - بمجـرد مشاركـتها لآخر فى واقـعه ومسـتقبله وفـى بعض ماضيـه أيضاً.. وهى لا تذهب إليه خـالية الوفـاض: فهى تحمل أكـواماً من عناصر الوراثة، ومن نمط التـربية، ومن علاقـة أمها بأبيـها، ومن علاقتها بأخواتها وزملائها وجيرانها، ومن الفقر أو الثراء، ومن القناعة أو الجشع، ومن الجمال أو القبح..

وإقامة شركة من هذا النوع الفائز فـيها هو المرأة - الزوجة - فهى الوارثة للرجل بصفتـها الشخصية، أو بصـفتها أماً لأبنائه، ووراثة الزوجة أمـوال «المرحوم» عادة قديمة لم ينظمـها الإسلام أو الديانات بصفـة عامة والقوانين الوضعـية من فراغ،

بل هى قديمة جداً.. ففى مصر القديمة كان بوسع الزوج أن يحوّل ثلثى ممتلكاته باسم زوجته (لتصير ممتلكات أولاده بعد مماته...... وكان الزوج يدفع تعويضاً إذا أراد أن يطلق زوجته) «٧».. فإذا مات الرجل فهى مالكة ما ترك، وإذا طلقها دفع لها «تعويضا» بالمعنى القديم أو «نفقة متعة» و«مؤخراً» كما يقال حديثاً..

لأجل هذا لم يكن مستغرباً منذ القدم أيضا أنه (فى مسائل الخطبة كانت المرأة هى البادئة، وشاهد ذلك أن ما وصل إلينا من قصائد الغزل ورسائل الحب أغلبه موجه من المرأة إلى الرجل، فهى التى تطلب تحديد مواعيد اللقاء، وهى التى تتقدم بالخطبة إلى الرجل مباشرة، وهى التى تعرض عليه الزواج صراحة، وقد جاء فى إحدى هذه الرسائل: أى صديقى الجميل، إنى أرغب فى أن أكون، بوصفى زوجتك، صاحبة كل أملاكك) «٨».. هكذا من أقصر طريق تضع عينها على «كل أملاكه» وبدون تنميق للهدف أو دبلوماسية.. وهذا لا يعنى تبجح هذه الفتاة «الطامعة» بل يعنى أن الأمر كان عادياً وتلقائياً..

فما الذى يدفع الرجل إلى مشاركة خاسرة؟! ليست الممارسة الجنسية هى الدافع.. فتاريخ البشرية يشير إلى استئثار الرجل بامرأة وعشر ومائة وألف بدون زواج: عشيقة، أو جارية أو حتى بائعة لجسدها.. فلم هذا القهر وتجريده من أمواله وحريته حياً؟! إنه الابن.. فالغريزة خلقها الله لدى الطرفين لتخليد النوع وحفظه من الزوال، فإذا كانت الحشرات تتناسل لتنجب أفلا يحق للإنسان هذا؟!

والناس على مدى التاريخ لا تعترف بابن العشيقة ويسمونه فى الوقت الراهن «ابن حرام».. ولا تعترف بابن الأمة كإنسان كامل كفء إلا إذا اعترف أبوه بزواجه من أمه.. وقصة عنترة بن شداد حاضرة فى كل ذهن وكفاحه لانتزاع حق المساواة مع الآخرين.. رغم تفوقه عليهم شخصياً.. رمز كبير لحالة آلاف وملايين من البشر أنجبتهم الإماء وعانوا الضعة والدونية إلا قليلاً.. ومنذ زمن أجدادنا الفراعنة (ميزت الإدارة بوضوح، فى المستندات الرسمية، بين الأعزب ذى المحظية وبين الرجل المتزوج) «٩».. والعملية هذه أطرافها ثلاثة: الرجل، والمرأة:

الأمة أو العشيقة، والابن.. ويقع العقاب على المرأة والابن أما الرجل فهو ظالم فى هذه الحالة.. وقد (كان الزنى بامرأة سببا للطلاق وقد يؤدى إلى حرق الزانية وهى مقيدة) «١٠».. ويبدو أن الرجل أحس منذ ذلك الزمن البعيد بوطأة الزواج وأعبائه وما يلاقيه من ظلم على يد الزوجة فانتقم لنفسه من آخرين: الأبناء وأخريات: العشيقات!! وقد عهد الناس (سيبويه المصرى) فى العصر المملوكى يركب دائماً أتاناً أنثى الحمار.. فسألوه: يا سيبويه.. الناس تركب حماراً وأنت ترك أتاناً.. لماذا؟! فقال: لأن فى البيت أتاناً تركبنى.. فأنا أركبها فى الأسواق!! والحالة التى ينال فيها ابن الأمة حقوقه كانت حينما يتزوج الرجل امرأة عاقراً، حينها يمكنهما (اتخاذ أمة صغيرة السن، فإذا ولدت للزوج أولاداً أمكن جعلهم شرعيين بالعتق عند وفاته) «١١».

ويبدو لى أن تعدد الزوجات لم يكن رغبة فى قهرهن، لأن الزوجة ـ كما رأينا ـ هى القاهرة، ولا بدافع الإشباع الجنسى، فالإماء والعشيقات يكفين.. إنما الدافع للزواج بامرأة واحدة هو نفسه الذى يسوق إلى تعدد الزوجات «مثنى وثلاث ورباع».. ولم يكن التعدد تقليداً إسلامياً.. فالبشرية كانت تحتاج ـ منذ انتظمت حياتها فى أشكال حضارية ـ إلى السيطرة على العالم بيابسته وبحاره وأنهاره، ولم تكن الآلة تساعدهم، فكان الإكثار من النسل هو الوسيلة.. على أن معظم حالات تحقيق هذا الشكل من التعدد لم يكن متاحاً إلا للممتازين بمقاييس الأزمنة.. كالملوك والأثرياء الأقوياء فى الحروب.. حدث هذا لدى اليهود وقبلهم لدى المصريين القدماء، فقد (كان مسموحاً للملك أن يتزوج عدة زوجات: «الزوجة» العظمى» ولها الأهمية الأولى بعد الملك، وكان لأولادها وحدهم الحق فى وراثة العرش، وعلى نقيض ما قيل، لم يكن من الضرورى أن تكون زوجة الفرعون «شقيقته» فبقية الزوجات يمكن أن تكون أختاً غير شقيقة، أو حتى ابنة الملك نفسه، أو أميرة أجنبية، أو سليلة أسرة سابقة) «١٢».. وفى غير الحضارة المصرية (يتزوج الرجل من الصين والهند ما شاء من النساء) «١٣».

تبدأ المرأة ـ إذن ـ نمطاً آخر من الحياة، وتتبدى طبيعتها الأصلية بمجرد انتقالها من العذرية إلى الزوجية، ومن بيت الأب إلى بيت الزوج ـ أو بيتها ـ ومن هؤلاء الزوجات من كانت لو امتدت بها الحياة سنة أو سنتين لتغير الكثير من تاريخ البشرية.. فها هو ذا (تحتمس الثالث «١٥٠٤ ـ ١٤٥٠ ق.م» ابن تحتمس الثانى، ووالد أمنحوتب الثانى، وهو بطل الأسرة.. بدأ حكمه بداية تعيسة، لأنه لم يكن سوى الزوج النابه للملكة حتشبسوت، غير أنه لما ملك حريته بموت زوجته التى كانت زوجة أبيه، أثبت أنه فاتح عظيم ومشيد معابد، فقد هزم عصبة من الأمراء السوريين فى مجدو بغير قتال تقريباً، وطوال العشرين سنة التالية قضى على مقاومة الممالك العظمى والصغرى فى فلسطين وسوريا فى حملات سنوية) «١٤» فلو عاشت حتشبسوت لبقى واحد من أعظم أبطال التاريخ مجرد زوج للملكة.

وأذى حتشبسوت لم يكن مقصوداً، هو أذى سلبى.. وغيرها يجثمن على أنفاس الزوج عامدات دائمات على وزن عابدات تائبات!! وليس بعيدا عن ذهن القارئين اضطهاد زوجة سقراط له.. هى نموذج للمرأة المحبطة القاتلة للأمل والطموح والفكر كما أنه نموذج للعبقرية الصامدة المتعدية لكل قهر، ولذا بقيت خالدة اللعنات وبقى خالد الثناء.. ومثلها زوجة نوح التى كفرت به وخذلته وحصدت عقاب جريرتها، وكذلك امرأة لوط التى كانت تشى به لدى قومه المخالفين له فى العقيدة..

وهناك امرأة تؤذى زوجها وهى مدفوعة بغريزتها، وربما تعاطفنا فى هذا الإيذاء أو الشكوى فقد (قالت امرأة فى الجاهلية تشكو زوجها: زوجى عياياء طباقاء، وكل داء له دواء) «١٥» وتقصد أن زوجها لا يحسن معاشرتها أو مواقعتها ـ جنسياً ـ و(يقال فى الفحل إذا لم يُحسن الضراب: جمل عياياء، وجمل طباقاء) «١٦».

بعض الزوجات يكتمن ضعف الرجل أو عجزه، وبعضهن يكتمن إلى حين،

وبعضهن يعلنه لأقرب المقربين: الأم والأب والأخوة، وبعضهن يشهرن بالزوج، وأخريات يكتمن كتمان الدهاء والخبث ويعوضن ضعف الزوج أو عجزه بقوة آخرين!!

ومن أمراض زمننا الراهن انتشار ظاهرة العنة بين الشباب: يهولك مظهر أحدهم طولاً وعرضاً فإذا تزوج خذل امرأته.. وليس له من ذنب إلا عدم اختبار نفسه قبل أن يمد لفتاة حبال الأحلام بزوج وأبناء وحياة خاصة..

ربما تعود الظاهرة إلى استشراء التلوث الغذائي والسمعي والبصري، وإلى البطالة، واليأس، والقهر السياسى والاقتصادى، حتى لم يعد الشباب.. أكثرهم.. يثقون فى أنفسهم وفى قدراتهم، وينحصر حلمهم الأكبر فى «شُقيقة» فوق السطوح أو تحتها، وزوجة.. ومع تحقق هذا الحلم البشرى البدائى لدى بعضهم لا يكاد يصدقه ولا يثق فى قدراته على استمرار الحلم وعدم انهدامه فوق رأسه.. وينعكس هذا كله على قدراته الجنسية الطبيعية.. ولذا يتعدى بعضهم هذا الضعف ويتغلب عليه، وبعضهم يسلم له، خاصة إذا صحبت الدوافع المادية الدوافع النفسية.. والله أعلم!!

وفى مواجهة هذه الأصناف «الصدئة» من الزوجات تقف زوجات شامخات فى كل زمن ومكان.. أمام امرأة نوح ولوط تقف امرأة فرعون التى آمنت بالله، وحمت موسى من القتل وحدبت عليه وربته ـ وإن لم يحفظ التربية وقتل مصرياً بعد ذلك!! كما جاء فى القصة القرآنية.. وأمام المرأة التى تشهِّر بالضعف الجنسى لزوجها الجاهلى تقف امرأة أخرى جاهلية لتخلد زوجها ببيت شعر.. إنها (دُخْتُنُوس بنت لقيط بن زرُارة بن عُدس تقول فى زوجها عُمَيْرَ بن مَعْبِد بن زرُارة:

أعينى ألا فابكى عُمَيْرَ بن مَعْبَد..
وكان ضَرُوباً باليَدَيْنِ وباليدِ) «١٧».

وربما لم يكن زوجها هذا ضروباً ولا يهش ولا ينش: لكنه وفاء زوجة لزوجها وذكر محاسن الموتى أو اختلاق المحاسن لها، وستر العيوب.. وفى طابور «دُخْتَنُوس» تقف ملايين النساء الوفيات المخلصات لأرواح الأزواج.. منهن من لم تتزوج وعالت الأبناء.. ومنهن من احتملت ضياع شبابها فناء فى حب رجل، وزوجات الشهداء أعظم أمثلة هذا الوفاء والصمود على الحب وإيثار الأبناء على النفس.. وقد لا تتوافر هذه المعانى لدى أكثرية الرجال.. فبمجرد سقوط الزوجة تحت أنياب عزرائيل ـ نستعيذ بالله منه!! ـ تتفتح شهية الرجل للتجديد والمتعة مادام قادراً عليها بوجوهها الشرعية أو المرفوضة من المجتمع.. وزواج الأرامل: رجلا وامرأة ـ حق له لكننا نتوقف عند محطة من الوفاء لابد من حسبتها فى ميزان المرأة..

ومع الوفاء للراحل تجد المرأة الآن كل عناصر التشجيع أو الفرض «للرقود» على أبنائها حتى يكبروا ـ كالدجاجة ـ!! فتحت كل طوبة فى مصر الآن ـ وفى كثير من دول العالم ـ تجد فتاة عناساً أو امرأة مطلقة.. وأكثر منهن من بلغن سن الزواج من ثمانى عشرة سنة حتى الثلاثين.. سنة الدخول فى ثلاجة العنوسة.. فمن تستطيع أن تتزوج من الأرامل إذن؟! سيتيسر لها الزواج إذا كانت صاحبة مال وفير أو جمال صارخ.. صارخ.. صارخ.. صارخ!!! وهؤلاء ما أقلهن!!

والخصال الحميدة للزوجة قد تؤلف قلوب الرجال حوله وتجعل داره كعبة للطائفين غير العاكفين.. فها هى ذى أم فهر نعيمة زوجة محمود محمد شاكر فى رأى يحيى حقى ود. محمود الربيعى ود. محمود الطناحى، هى كما قالت عايدة الشريف: (إن يدها السخية تعيد إلى ذاكرتى ما قرأته عن إحدى زوجات الرسول وهى تقتسم مع مساعدتها التمر الذى جاءها هدية، إن أم فهر تحب الكائنات حتى إذا رأيت قططها يتحلقنها وكأنها أمهم، تلاطفهم ويلاطفونها...) «١٨» وعنها يقول يحيى حقى: (أم فهر التى بمعرفتى لها ولزوجها انزاح عن كاهلى كثير من مشاكل حياتى المعيشية.. لقد صار لى فى بيتها ركن فى حصن أهجع إليه من

هجير الحياة.. ولاشك أن كثيرين مثلى يشعرون بما أحس تجاه هذا البيت التليد.. فأين الآن البيت المفتوح على مصراعيه لاستقبال من ليس له أنيس؟ يدخله فى أى وقت وفى أى ظرف فيتلقاه بالبشر.. إننا لا نتعلم ولا نأكل فى هذا البيت فقط.. بل قد تتحفنا أم فهر بشىء نأخذه أيضاً لبيوتنا) «١٩».

السيدة أم فهر لم تكن مفكرة ولا محققة تراث ولا لغوية، وعلى الرغم من ذلك وقفت بقامتها الشامخة إلى جوار زوجها الشامخ.. وليس مبالغة إذا أسندنا إليها بعض الفضل فى تهيئة زوجها للفكر والإنتاج العلمى..

لا نذكر فى معانى الوفاء ودعم الزوج هنا النموذج الأعظم: السيدة خديجة زوجة النبى.. فهى أكبر من كل ذكر وفضلها فوق كل فضل.. وليس على سبيل المقارنة - فالهوة كبيرة - بين السيدة خديجة وسيدة أخرى من زمننا ليست كخديجة ولا زوجها كالنبى صلى الله عليه وسلم - لكن دورها مازال حاضراً فى أذهان العالم كله ولا أظن التاريخ سينساه: إنها السيدة هيلارى كلينتون زوجة رئيس أمريكا السابق بل كلينتون: البصباص القناص صديق مونيكا.. لقد ساندته وهو الخارج عليها، ودعمته والحراب توجه لصدره وأوشكت أن تزلزله من فوق عرش أمريكا.. ويبدو أن الأمريكان - وقليلاً ما يصيبون - قد ردوا عليها الموقف الطيب بأحسن منه فاختاروها عضوا بالكونجرس.. فبعد أن كانت تعرف بزوجها، أصبح زوجها يعرف بها: بصفته بل كلينتون زوج السيناتور هيلارى!!

أمهات

الهدف من الزواج - إذن - تخليد الذكر بالأبناء.. فالابن يحمل اسم أبيه وأسلافه للأبد بانتقاله منه إلى من يتلوه من الأبناء الذكور.. وينقطع الاسم عند الفتاة: الابنة، فمن تلده لا يحمل اسمها واسم أبيها.. وقد قصر هذا الواقع بمرتبة البنت لتلى الابن فى التاريخ البشرى العام مع أسباب أخرى.. ويقال فى الأمثال (من خلَّف ما ماتش» ويقصد بالخلفة الولد لا البنت.. ولا نستعرض فضائل

الولد على البنت لدى عامة الناس وأكثرهم على مدى أزمان طويلة.. ولا نرد كذلك على هذا التفضيل بأن من النساء من هن أفضل من قبيلة أو شعب أو أمة: فحتشبسوت ونفرتيتى وكليوباترا وهيباتيا والخنساء والسيدة خديجة والسيدة عائشة وشجرة الدر خير بدون شك من أى رجل لا يحمل من السمات غير الذكورة واللحية!! لسنا الآن فى سياق المقارنة بين الحق والواقع، بل نتوقف عند دافع المشاركة الإجتماعية أو الزواج.. فالأصل هو الإنجاب من أجل الخلود.. وبعض الأشخاص ذوى القدرات الخاصة يخلدون أنفسهم بغير هذه الوسيلة الغريزية التى يستطيعها الحيوان والنبات والحشرات.. هناك من يخلد نفسه بالحروب والغزو، ومن يخلد نفسه بالحكم، وأعظم الخالدين من يخلِّف للبشرية فكراً وأدباً وفناً.. نعرف جميعاً هوميروس، ولا نسأل: كم من الأبناء أنجب، ونعرف سخيلوس وسوفكليس وأفلاطون وسقراط وأرسطو والفلاح الفصيح، وامرأ القيس وزهيراً وعمرو بن كلثوم والحطيئة وجريراً والفرزدق وعمر بن أبى ربيعة وأبا نواس وبشاراً وديك الجن وواصل بن عطاء وابن سينا وابن رشد وأبا حامد الغزالى وأبا الفرج الأصفهانى وابن قتيبة والخليل بن أحمد وإبراهيم الموصلى واسحق بن إبراهيم الموصلى والمتنبى والبحترى وأبا تمام ودانتى ونيتشه وهيجل وجان جاك روسو والبارودى وشوق وبرنارد شو.. معالم مضيئة فى التاريخ البشرى خلدوا بأنفسهم، بعطائهم، ولم نسأل كم من الأبناء أنجبوا، ولم يضف إليهم أبناؤهم شيئاً، بل ربما خصموا من أرصدتهم بسوء تصرفهم وجهلهم وتجاهلهم وصغارهم.. وقد تفعل البنت لأبيها ما لا يفعل الولد.. فبعد رحيل أحمد شوقى لم نعد نسمع عن أبنائه شيئا رغم أن بعضهم «دكتور» ولم نعرف من خلفاء زكى مبارك - على المستوى العام - غير ابنته كريمة التى أعادت إحياء فكره وذكراه ولم يفعل الرجال شيئاً، وكذلك انقطع الاحتفاء بسلامة موسى بعد رحيله ولم يقدم من تركهم شيئاً لدراسة فكره ومواقفه.. السلسلة طويلة فى قوائم الخالدين بأعمالهم والذين ينال بعض المقربين إليهم مس من

الخلود.. فقيمة بنتى نجيب محفوظ فى انتمائهما إليه.. وكل ما أوردنا من أسماء ليست إلا نقطة فى البحر البشرى الهائج المتجدد دائماً والمختلج بالدماء والأفعال والأقوال والطموح والجنوح.. حالات العبقرية والنبوغ هى حالات الشذوذ أى الندرة النادرة ولا يخضع لها ناموس الكون.. إنما يخضع لما تخضع له الكائنات الحية كلها إلا قليلاً: الرجال يتزوجون لينجبوا وتخلد أسماؤهم ولو إلى حين.. والرجل يتجرد من كل شىء حتى جلده نظير هذه الأبوة.. فهل تفعل المرأة شيئا نظير أمومتها؟!

السؤال ساذج، إجابة محسومة منذ بدايات البشرية الأولى: هى التى «تنتفخ» بالحياة القادمة تسعة أشهر، وتعولها، وتحييها من ثديها.. فالأمومةغريزة، ولم يقل أحد ـ حسب علمنا ـ أن الأبوة غريزة.. فإذا كان دافع الأب للزواج والإنجاب هو الخلود ـ لأن الابن يحمل اسمه لا اسم أمه ـ فدافع الأم للإنجاب هو الإنجاب والأمومة ليست علاقة نفعية إذن.. هى عطاء بلا أخذ، وحب بدون مقابل، وفناء فيمن تحب حتى الموت.. قد تموت فى الولادة وقد تموت جوعاً وضعفاً، وقد تموت دفاعاً عنه.. هى تالية له فى كل شىء ينفع ومقدمة عليه فى كل شىء يضر.

وعلى قدر ندرة العباقرة من الرجال، سجل لنا التاريخ والحاضر ندرة من الأمهات جافات الأمومة، أو مريضات الأمومة، أو معدومات الاحساس بها، أو من تقدم حريتها على أمومتها.. فها هى ذى (امرأة من كنانة سباها عروة بن الورد وأولدها وحج بها فقابلهما أهلها فطلبوها فقال: خيروها.. فاختارت أهلها، ثم قالت: «أما إنى لا أعلم امرأة ألقت ستراً على خير منك: أغفلَ عيناً وأقلَّ فحشاً وأحْمَى لحقيقته، ولقد أقمت معك وما يومُ يمضى إلا والموتُ أحب إلىّ من الحياة فيه، وذلك أنىِّ كنت أسمع المرأة من قومك تقول: قالت أَمَةُ عُرْوَةَ كذى، وقالت أَمَةُ عروة كذى، والله لا نظرت فى وجه غطفانيَّة، فارجعْ راشداً، وأحْسِنْ إلى ولدك) «٢٠».

كانت زوجة عروة التى سباها مخيرة بين حريتها وكرامتها، وبين زوجها وأمومتها.. فاختارت الحرية، وهذا موقف صعب.. لأن الحرية دائماً ثمينة، ثمنها

الحيـاة نفسها، هى لا تعطى منحـة ولا هبة بدون مقـابل، وقد اختارت ولديهـا ما يبرر الاختيار، أما غـيرها فمبررها ضعيف إذا ما قورن بالضحـية.. إنها تقتل ابنها من أجل شهـوة.. والحكاية أن (امرأة من فَهْم لهـا ابن من هذيل، لما كبر اعـترض على دخول تأبـط شرا إليهـا، فتآمـرا على قتلِه، قـالت تقصد ابنـها: «إنه ـ والله ـ شيطان من الشياطين، والله ما رأيته قط مسـتثقلاً نوماً، ولا ممتلئاً ضحكاً، ولا هم بشىء مذ كـان صغيراً إلا فـعله، ولقد حملتـه فما رأيت عليـه دماً حتى وضعـتُه، ولقد وقع عليَّ أبوه وإنى لمتوسِّدة سـرجاً فى ليلة هَرَب، وإن نطاقى لمشدود، وإن على أبيه لدرعاً، فاقتله، فإنت والله أحبُّ إليّ منه») «٢١».

كل سمات القوة والعنفوان التى اتسم بها هذا الصبى كانت أدعى لحبه والحفاظ عليه، خاصة فى بيئة تعيش على الكر والفر والعدوان.. لكن غريزة الجنس غلبت غـريزة الأمومـة لدى المرأة الفـهمـية.. وهى ليـست المتـفردة فى هذا الاخـتيـار.. فمـجتـمعنا الحديث يـحمل لنا أخبـار مثـيلاتها عـبر الصـحف.. منهن المضطربة نفسياً، ومنهن الراغبات فى الانـتقام من الزوج أو الطليق بقتل أبنائها منه، ومنهن من غلب عشقها أمومتها.. وثمن العشق هنا ليس فوقه ثمن..

عاشقات

وبعض العاشقـات يدفعن ثمناً آخر: حياتهن نفـسهـا.. فهذه (عـفراء بنت مالك العذرية صاحبة عروة بن حزام تقول فى نعيه):

ألا أيها الرَّكْبَ المخبُّون ويحكُمْ — بحقٍّ نعيتم عروةَ بن حزَامِ؟

فلا نَفَعَ الفتيان بعدكَ لذةُ — ولا رجعوا من غيبةٍ بسلامِ

وقل للحبَالى لا يرِّجين غائباً — ولا فرحتْ من بعده بغلامِ

فمازالت تردد هذه الأبيات حتى ماتت، فبلغ الخبرُ معاويةَ، فقال: لو علمت بحال هذين الشريفين لجمعت بينهما) «٢٢».

وليست حياة عفراء وحدها ضحية الهوى.. غيرها كثيرات.. وقد (سئلت إعرابية عن الهوى فقالت: لا متع الهول بملكه، ولا ملى بسلطانه! وقبض الله يده، وأوهن عضده! فإنه جائر لا ينصف فى حكم، ولا يقصر فى ظلم، ولا يرعوى للذم، ولا ينقاد لحق، ولا يبقى على عقل وفهم، لو ملك الهوى وأطيع لرد الأمور على أدبارها، والدنيا على أعقابها) «٢٣».. كلام عن العشق فيه خلاصة رأى وحكمة وتجربة لدى العرب، ولذا قال أحدهم:

مساكين أهل العشق ما كنت أشترى ... جميع حياة العاشقين بدرهم

والمرأة العاشقة أشد إيلاماً من الناس وأقرب إلا الاتهام والقهر من الرجل العاشق.. هى لا تبوح إلا قليلاً، وإذا باحت فتهويم فى المعانى المجردة لا ذكراً للوقائع المحددة، وتفضفض بقليل من كثير، وتلمح لا تصرح.. ومعظم من عرفنا من العاشقات وصلنا خبرهن على ألسنة عاشقيهم ومقترنات بأسمائهم، وقد ربط العرب (بين كل متيم وصاحبته التى عُرف بها، تماما كما فعلوا مع «العذريين» فى العصر الأموى: فالمرقِّش الأكبر وأسماء، والمرقِّش الأصغر وفاطمة، والمخبِّل وميلاء، وعبدالله بن العجْلان وهند، ومالك بن الصمصامة وجَنوُب، وقيس بن الحَدادِيَّة ونُعْم، وعبدالله بن علقمة وحُبَيْشة، وعمرو بن كعب وعُقَيْلة، ثم أبعدَهم صيتاً وأشدهم ذكراً: عنترة وعبلة) «٢٤»، الرجل هو الذى يبوح، ويؤذى ببوحه هذا فلا يتزوجها «لتشهيره بها».. وإذا كانت المرأة معروفة بالثرثرة فى كل حالاتها فهى فى هذه الحالة كتوم حافظة لسرها وسر من تعشق.. لأن الرجل قد يمنع من زواجها ورؤيتها أما هى فمصيرها القتل فى معظم الأحيان والحبس فى أحيان أخرى والحرمان ممن تحب دائماً.

وعلى الرغم من مثل هذا العقاب، فإن بعضهن متجرئات على الجهر بالهوى، فقد عرف عن الشاعرة ولادة بنت المستكفى بالله بن محمد بن عبدالرحمن بن عبدالله ابن الناصر أنها (كتبت بالذهب على طراز ثوبها:

أنا والله أصلح للمعالى وأمشى مشيتى وأتيه تيها

وأمكن عاشقى من لثم خدى وأعطى قبلتى من يشتهيها

ومع ذلك فقد كانت مشهورة بالعفة والطهارة، وفيها أنشد ابن زيدون أروع قصائده.

ومن شعرها أبيات ودعت بها ابن زيدون:

ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك

يقرع السن على أن لم يكن زاد فى تلك الخطا إذ شيعك

يا أخا البدر سناء وسنا حفظ الله زماناً ما أطلعك

إن يطل بعدك ليلى لفكم بت أشكو قصر الليل معك

وكانت ولادة شاعرة جزلة القول رقيقته، وكانت تساجل الشعراء، وتناضل الأدباء، وعمرت طويلاً، وماتت عذراء سنة ٤٨٠ هـ) «٢٥».

وولادة الشاعرة العاشقة مثيرة للجدل، فالترجمة الأولى لبيتيها السابقين تعرب عن دعوة مادية صريحة للثم والتقبيل، وما بعد اللثم والتقبيل؟! لكل من يشتهى الخد والثغر.. ومن لا يشتهى ثغر ولادة؟! والجهر لديها بالرغبة والموقف الصريح من العشق والجرأة فيه، ليس تعبيراً يطير فى الهواء، إنه مسجل على ثوبها يقرأ من يرى ويهيج له من يحس!!.. وهى كذلك تبيت تشكو قصر الليل مع ابن زيدون، فهل يجتمعان لقراءة القرآن والتداول فى أحوال الرعية؟!

القراءة الثانية لولادة وأبياتها تطلعنا على شاعرة حرة الإرادة والتعبير، وتريد أن تبدو قدوة لغيرها من النسوة العاشقات، أو هى تتحدى أعراف المجتمع وموقفه من المرأة حين تعشق.. فهى صاحبة قضية!! وهى كذلك ـ كشاعرة ـ صاحبة خيال يتعدى الحدود والطقوس والتقاليد.. وليس مستبعدا أن تكون قد دفعت ثمن حريتها ـ والحرية غير التحلل والتهتك ـ بأن بقيت عذراء حتى ماتت، ولم

يقربها زوج.. وعـذريتها والتأكد من تمسحها بها أمر يشك فـيه، لكن ما لا يشك فيـه أنها لم تتـزوج.. لم يرغب راغب من أكفـائها فى الاقتـران بها.. لأنهـا حرة وشاعرة دفعت ثمن حريتـها وشعرها، فماتت وحيدة بعد الشـيخوخة وبقيت فى التاريخ وحيدة كذلك.

ومفردات العشق ودروبـه كثيرة: الهوى، والصبابة، والـوجد، والهيام، والحب، والجـوى.. ومنه كـذلك الحب أو العـشق المعنوى ـ كـالعـذريات ـ والمادى الذى يقرن المشـاعر المتوهجة بالرغـبة المشتعلة، ولا يـغنى هذا عن ذاك.. فلربما بالقرب هاجت المشاعر واشتـعل الوجدان، وما أطفأتهما ممارسـة طقوس الرغبة.. فلو أن الرغبـة أطفأت الوجد فـليست الحالة من العـشق فى شىء.. فى كل لقاء تتـعانق العواطف وقد تتعـانق الأعضاء.. وإذا انتزعا كأنهما لم يلتـقيا.. فى القرب وجد، وفى البعد وجـد، وفى الحلم وجد، وفى الصحو وجد.. وإذا تعـمق الوجد فاض من الداخل إلى الخارج كله فأحب العاشق والعـاشقة الناس والشجر والدواب.. وانصلح من حالهما مـا كان فاسدا، واستقام ما كان مـعوجا فى حالات القرب.. أما البعد الأبدى فلا وسط فـيه إلا الانكسار أو الإبداع.. فمن ملك الكلام صدح به الصـداح الأخير الجـميل الخـالد.. ومن عجـز عنه فحـتمـا لا تقوم له قـائمة.. العشق بنّاء، معطاء، مـشّاء بالخير بين القلوب وبين البشر.. وأكـثر من نجحوا فى حيـاة العالم كانوا عاشـقين، منهم من صدح بعـشقه ومنهم من كتـمه ومنهم من أنكره.. وفى كل حال كان هذا العشق هو كهرباء النجاح والطموح والإنجاز..

العشق تلبس نفسين وجسدين وعـقلين: كل على قدر الآخر، وبحجمه وإلا ما تجانسا، فالثوب الذى تصنعه يد الحـائك لا يليق بالجسد إلا إذا لاءمه طولاً وسعة ولوناً وقيمة.. فما بالنا بالخالق الأعظم الذى صاغ الخلق زوجين.. والزوجان هنا لا بالمعنى العرفى والشرعى إنما بمعنى التوأم والتجانس والاكتمال..

لكل وحد لا غيره، وتبدو النفس باحثة حتى تلتئم بذاتها الأخرى، وقد لا تلتئم أبداً.. فالعـشق خصوصيـة، وإذا تعدت المرأة إلى رجل واثنين وأكثر فـهى ليست

بعاشقة.. وليس فى فعلها عشق.. إما باحثة عن متعة وإشباع أو باحثة عن ثمن للجسد.. وبعض المجتمعات قديما وحديثاً تقر هذا المسلك.. وقد ورد عن الصين فى العصر الوسيط ان بها (نساء لا يردن الإحصان يرغبن فى الزنا، وسبيل هذه ان تحضر مجلس صاحب الشرط فتذكر زهدها فى الإحصان ورغبتها فى الدخول في جملة الزوانى وتسأل حملها علي الرسم في مثلها، ومن رسمهم فيمن أراد ذلك من النساء ان تكتب نسبها وموضع منزلها، وتثبت فى ديوان الزوانى، وتجعل في عنقها خيطاً فيه خاتم من نحاس مطبوع بخاتم الملك، ويدفع إليها منشور يذكر فيه دخولها في جملة الزوانى وان عليها لبيت المال فى كل سنة كذى وكذى فلساً، وأن من تزوجها فعليه القتل، فتؤدى في كل سنة ما عليها ويزول الإنكار عنها.. فهذه الطبقة من النساء يخرجن بالعشيات عليهن ألوان الثياب من غير استتار، فيصرن إلى من طرأ إلى تلك البلاد من الغرباء من أهل الفسق والفساد وأهل الصين، فيقمن عندهم وينصرفن بالغدوات)(٢٦).

ثمن أجساد هؤلاء النسوة موزع بينهن وبين الحكومات.. قديماً كانت تدفع - فى دول كالصين - إلى بيت المال وحديثا فى دول الغرب ودول الشرق غير الإسلامية تدفع ضرائب لخزانة الدولة.. فهن مصدر «دخل قومى» ولذا فمن تزوجها - كما ورد - فعليه القتل، لأنه سيحرم الدولة من مصدر دخل!!

بعض الدول على مدى الأزمان تتاجر بأجساد نسائها، وتبيح لهن تجارة رخيصة غير آدمية من أجل مال قليل أو كثير.. ومن قبل تنظيم هذه الجباية من بائعات الهوى يشارك كل المجتمع فى دفعهن إلى التجرد من الكرامة والإحساس بالذات.. فالدعارة مرتبة أدنى من مرتبة البهيمية، لأن البهائم مباحة لبعضها لكنها بدون مقابل!! والساقطة بمقابل.. فمن الذى أسقطها؟! المجتمع يدفعها لهذه الهوية: فقراً وقهراً ويأساً من عمل شريف.. ومن حين لآخر تريد سالكات هذا الدرب ان يتطهرن، ان يمارسن حياة البشر، فتقع إحداهن فى هوى رجل ويصبح أثيراً لديها، تأتيه ويأتيها بدون مقابل إلا الرضا والسعادة.. ومع لحظات السقوط

المتكررة يبقى الحلم الدائم والكامن هو الزواج والأسرة والأمـومة.. ورغم ان المجتمع هو المحطم الأول لها بأشكال شتى، ورغم ان بعض المجتمعات تشاركها ثمن جسدها فإن مصيرها غالبا كما صورها شاعر أسيوط شوقى محمود أبو ناجى فى قوله:

طال الوقوف وسـالت الأصبـاغ ... والمغرمـون تفرقـوا أو راغـوا
ما عـاد قيـثار الهـوى مترنمـا ... لم يبق لحـن للجمـال يصـاغ
هل جف نبع الشعر؟! بل ياويلتا ... ذهب الشباب وجفت الأصـداغ
أين العيون السود تسبل هدبهـا ... فإذا قلـوب العاشـقين فـراغ؟
يتطلعـون إلى تبخـتر طيفهـا ... كالشمـس إذ يرجى لهـا إبـزاغ
ولكم تختمت العقيق وكم صـفا ... بالزنـد والجيـد الجميل مصـاغ
كان الجمـال لدى المليحـة سـلعة ... تزجى فترجى.. والدلال يسـاغ
وترش مخدعها العطـور فينتشى ... جسد ويثـمل بالأريـج دمـاغ
ويـدور في فلـك الجمـال متيـم ... شـبق وكل مرامـه إبـلاغ
ويلـذ للعـشاق ان يتسـمروا ... فكأنمـا لصقتهـم أصمـاغ
طلبـوا المتـاع ولم تشح أكفهـم ... والحسـن يفـرط عـنده الإسـباغ
أخذوا الشذى من عين أجمل وردة ... ورموا بها عرض الطريق وزاغـوا
حـتى إذا أفـل البريـق ولم يعـد ... من يرتجيـه تحـدث النـزاغ
جلست لتمضغ بالأسـى أحزانهـا ... إذ قـد يخفـف حزنها التمضـاغ
ورنـت إلى مرآتهـا فتفزعـت ... كالجلـد هـب لنهشـه لـداغ
ماذا دهـى مرآتهـا.. لكأنهـا ... قد صـورت ما أفسـد الدبـاغ
ربـاه كـيف تبـدلت منبـوذة ... كالـداء يرجـف أو هـى الأرداغ
وتلفتـت والدمـع مـلء عيونهـا ... هـذا بيـان مؤلـم وبـلاغ

ومنافع بعض الدول من أجساد النساء لا تقف عند الضرائب ومقاسمتهن «عرق أعضائهن»!! بل ربما ساقت بعض الأجهزة الرسمية بعض النسوة إلى اصطياد الرجال ذوى الشأن السياسى أو الاقتصادى الكبير من الدول الأخرى، لاخضاعهم لإرادتها بعد ذلك.

المرأة «سنارة» أكيدة الصيد في هذه الحالات.. وربما كانت بداية هذه السنة من خلال اليهود.. لقد أطلقوا نساءهم الفاتنات علي الساسة من دول العالم الثالث ومن بلاد المسلمين بل ومن الغرب كذلك.. وآخرهن مونيكا - كلينتون - ويجرى تسجيل أفلام سرية للعمليات الجنسية لتبقى وثيقة ضغط وقهر لأى سياسى في الوقت المناسب.. إما الخضوع لإرادة اليهود ومصالحهم أو الفضائح والتشهير..

أطلق اليهود نساءهم كذلك علي بعض الفلسطينيين فى الثلث الأول من القرن الماضى، فكان بعض أبناء فلسطين يبيع أرضه بثمن غالى، ثم تصطاده فاتنة يهودية، تعطيه الجسد واللذة وتشبع شهوته حتى تسلبه ما بجيبه وما بيده، فيضحى معدماً بعد أن كان مالكاً ثرياً!!

وتمارس اليهوديات شيئاً من هذه الألاعيب وإن كان بطرائق شرعية - لدى بعض من بدو سيناء المصريين.. تتزوج إحداهن أحد الشباب وتقيم معه فى خيمة أو كوخ أو بيت فقير، لتنجب منه، والطفل لديهم علي دين أمه، رغم أنه فى الإسلام علي دين أبيه.. وبعد زمن قريب يسعى هؤلاء اليهود لامتلاك أرض وديار فى سيناء باسم أبناء نساءهم!!

نساء اليهود الداعرات يتوافدن علي بعض الأقطار العربية، حاملات وباء الإيدز ويقع فى شباكهن من يقع من الشباب العربى الجائع المحروم من الجنس الحلال أو الحرام.. ولقاء واحد مع مريضة يدمر حياة يانعة خضراء.. مثل هذه المرأة قنبلة جرثومية.. قبل ان تفنى ويلفها العدم مكفنة بألف لعنة تنقل وباءها القاتل إلى ألف شاب عربى.

وعلي الرغم من ان تجارة الأجساد البيضاء والصفراء والسوداء تجارة فردية وجماعية، ودولية قديمة، فإنها في الزمن الراهن تعدت كل مقاومة وحد.. فيستطيع راغبو الجنس المباع أن يحصلوا عليه عبر الشاشة الصغيرة من خلال أجهزة الدش وكذلك الانترنت: تشترى جسد من تشاء من الدواعر من شتى الجنسيات في الزمان والمكان الذى يستهويك.. وتستطيع ان تمارس «نصف ممارسة» من خلال الأفلام الجنسية التي تراها عارضة كل ما هو جميل وقبيح وجذاب ومنفر فى جسد المرأة.. وتدخلت الآلات الحديثة لتغيير الملامح الجسدية والجنسية لدى طرفى العملية من الجنسين، وتطورت أشكال الممارسة وأنواعها وكلما أغرقت هذه الأفلام وصانعوها في تعداد الممارسات أغرق أصحاب الأذواق النقية الذين يشاهدون هذا العبث في الإحساس بأنهم أمام «زريبة» حيوانات أو كلاب علي وجه التحديد وربما أحط من الكلاب!!

بنات

من يشهد هذه البهيمية أو «الكلابية» يعجب لاختلاط الجمال بالقبح، وانتقال البراءة إلي دعارة.. فأجسام هؤلاء الساقطات آية من آيات الخالق وتجسيد لجماله تناسق، وانسجام، ولدونة حتى لتكاد تطوى الواحدة علي إصبعيك ولا تكسر!! لا ترى عضوا ينفر من عضو بل ينافسه فى الفتنة والتوازن والحميمية.. والبشرة البيضاء والصفراء والسوداء كلها سواء في هذا الجمال الإلهى الذى يفسده البشر بسوء توظيفه وفي الوقت الذى يدين العالم الغربى المتحلل المتاجر في كل الأخلاق والأجسام، تعدد الزوجات لدى المسلمين، نرصد متاجرته فى النساء والجنس وترويج هذه التجارة بكل الوسائل الحديثة التى اخترعها، ويفرضها فرضاً فى كل بقعة تسود فيها أعرافه.. فتركيا لتثبت أنها خرجت علي الإسلام وأصبحت «غربية» تبيح بيوت الدعارة وأفلام الدعارة وتحميها وتنظمها..

الغرب يرفض ان يتزوج الرجل بامرأتين وثلاثاً وأربعاً، ويفرض ان تملك كل

امرأة رجلاً وكل رجل امرأة واحدة.. وفي الوقت نفسه يبيح، بل يشجع ملايين النساء على ان تصبح كل منهن ملكاً لملايين الرجال فى وقت واحد وفى أماكن عدة.. ولو ان كل رجل فى العالم تزوج امرأتين أو ثلاثاً وعالهن ورعاهن ما وجدنا داعرة واحدة في هذا الكون..

انه تناقض هذا الغرب المادى البغيض، كتناقض حالات النساء نفسها.. فهذه المرأة العارضة جسدها من الظفر إلي المبضع فى كل وسائل العرض: الصحف، التليفزيون، الانترنت، الأفلام.. هى نفسها المرأة التى كانت لحماً أخضر حينما صرخت أول صرخة لها في الحياة، وتلقفتها الأيدى المرتعشة بالفرح لخلق جديد..

المرأة هذه هى البراءة والرقة والحبو الجميل المناغاة وحلم الكبار فى أيام سعيدة للطفلة البضة التى تصحب لأهلها مع ولادتها الرزق - كما يشيع العامة - وربما أتي الرزق معها فعلاً قناطير مقنطرة.. فقد (ولدت لأبى دُلامة ابنة ليلاً، فأوقد السِّراج وجعل يخيط خريطة من شُقق - الشقق جمع شقة بالضم، وهي من الثياب السبيبة المستطيلة - فلما أصبح طواها بين أصابعه وغدا بها إلي المهدى فاستأذن عليه، وكان لا يُحجب عنه، فأنشده:

لو كان يُقعد فوق الشمس من كرمٍ
قومٌ، لقيلَ اقعدوا يا آل عباس
ثم ارتقوا من شعاع الشمس فى دَرَج
إلي السماء فأنتم أكرمُ الناسِ

قال له المهدىّ: أحسنت والله أبا دلامة! فما الذى غدا بك إلينا؟ قال: ولد لى جارية يا أمير المؤمنين. قال: فهل قلت فيها شعراً؟ قال: نعم، قلت:

فما ولدتْك مريمُ أمُّ عيسى — ولم يكفُلْك لقمان الحكيمُ
ولكن قد تَضُّمك أم سَوءٍ — إلى لبَّاتها وأبُ لئيمُ

قال: فضحك المهـدى. وقال: فما أريد ان أعينك به في تربيتـها أبا دلامة؟ قال: تملأ هذه يا أمير المؤمنين. فأشار إليه بالخريطة بين إصبعيه. فقال المهدى: وما عسى ان تحمل هذه؟ قال: من لم يقـنع بالقليل لم يقنع بالكثير. فأمـر ان تملأ مالاً. فلما نُشرت أخذت عليهم حصن الدار، فدخل فيها أربعة آلاف درهم)(٢٧).

هى مصحوبة بالخير منذ ولادتـها، ولم يكن قتل بعض العرب الجاهليين للبنات «خشـية إملاق» ينقلهم من حـالة الفقر إلي الغنى ومن الجـدب إلي الخصب، فلم يكن للطفلة يد في فقـر أو ثراء حينذاك.. كانت الطبـيعة شحـيحة بخيـراتها علي هؤلاء البدو: رجالا ونساء وأطفالا.. وبعضهم يقتلها خوف الفضائح الجنسية أو «العار» قبل اختراع أفلام الجنس بألفى عام!!

لكن قتل الفتيات لدى العرب الجـاهليين كان نادراً وفى حالات يكاد يحصرها التاريخ.. ومن قـبل ذلك الزمن بزمن طويل كانت الفـتاة في مصـر القديمة تحظي بالرعـاية والسؤدد بين أبويهـا، ففي حـين كان الفـرعون (يتـقبل في حـريمه بعض أميرات من الميـتانيين أو البابليين أو الحيثيين، رد باحـتقا على ملك بابل الذى أراد مـصاهرته بـقوله: لم تعـط ابنة ملك مصـر قط لأى فـرد» في تلك الأثناء كـانت الملكات يتراسلن فيما بينهن للمحافظة على الصداقة بين أزواجهن)(٢٨).

هذا اعـتزاز بالابنة وتبـجيل لهـا، وضن بها عن ملك مـا دام غريبـاً عن ديارها، وليـسـت هنالك مكانة أعظـم للابنة، ولا حب من أب أرقى من هـذا.. والحـادثة نفسها مرتبطة بالجنس ايضا في شكل الزواج المشرع.. فهل كان يتوقع الفرعون ان يرى نساء عاريات من كل صنف وحـجم وبشرة معروضات فى «الفـتارين» بعد أربعة آلاف عام؟!

والجنس كان شغل هذا العربى القديم.. فقد (أنكح ضرار بن عمرو الضبى ابنته معـبد بن زرارة، فـلما أخـرجها إلـيه قـال لها: « يابنيـة امسكى عليك الفـضلين» قالت: وما الفضلان؟ قال: فضل الغلمة، وفضل الكلام)(٢٩).

وفضل الغلمة هو البظر، ويقصد حافظى علي نفسك لزوجك ولا تقربى غيره.. وكذلك امسكى عليك لسانك فيما لا يفيد، وامنعيه من الاستطراد والحشو واللغو والثرثرة.. فكل أب وضع قطعة فى نفسه فى ابنه وفى ابنه.. هى منه وهو فيها، وربما كانت أقرب إليه من الولد لما تكن من عواطف الأمومة التى لا يكتبها الولد.. والأمومة قد تمارسها الفتاة منذ صغرها، مع لعبها، واخوتها، وزملائها، ومع أبيها أيضاً.. وليس يحلم لها الأب إلا بالسمو ولا يحتملها فى موضع التدني والسقوط.

ضرات

واذا كانت فكرة تعدد الزوجات تقضى علي تشرد بعض الفتيات والنساء وضياعهن بين تجارة الأجساد والسرقة والنشل والمخدرات.. فإن هذه الفكرة تخلق مشكلة أخرى اسمها «الضرات»!!

«والضرة ضبطت في المعجم الوسيط بفتح الضاد المشددة لا بضمها، وعنها يقول المعجم: [(الضرة): الضراء. والضرة احد زوجتى الرجل، أو إحدى زوجاته. جمع ضرائر. ويقال: بينهم داء الضرائر: الحسد. والضرة أصل الثدى والضرة المال الكثير. والضرة من القدم: ما يباشر الأرض عند الوطء من لحم باطنها مما يلى الإبهام](٣٠).

وكل معانى الكلمة ومعظم مشتقاتها تندرج تحت معنى الإيذاء والضرر.. قد يكون الإيذاء متبادلاً بين زوجة وأخرى أو من إحداهما - أو إحداهن - للرجل أو منهن جميعاً للزوج المقهور.. وليس بعيدا عن ذاكرة التاريخ ما كانت تفعله أمهات المؤمنين رضى الله عنهن، أحيانا بالرسول الكريم قد روى انه غضب يوماً منهن جميعاً فهجرهن و«هج» منهن حتى أعاده عمر بن الخطاب.. وليس هناك أكثر حلماً واحتمالاً وأوسع أفقاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم.. مر به

وقت يئس منهن وهن أمهات المؤمنين فما بالنا بالعابرات في تاريخ البشرية؟!.. ولذا يقول المثل الشائع: زوج الاثنين يا قادر يا فاجر!! أي يملك الثراء ووفرة الصحة أو هو لا يخاف الله فيهن ولا في غيرهن ولا يميز بين حلال وحرام ويقسو ويغلظ عليهن، ولا بصيغة التدرج بالنصح والتعليم والتحذير (واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن)(٣١). ليس بهذا التدرج في التقويم بل بتكسير الضلوع لأول وهلة وأول سقطة!!

كل واحدة تعلم أن لضرتها نصيباً فى زوجها، وتوقن أن الشرع - الإسلامى - يبيح له الحق هذا، وأن الحاجة إلى إتيان شرع الله خير من التسرى - خاصة بعد إلغاء العبودية - وخير من ارتياد بيوت الدعارة وخير من اصطياد «غزلان» الشوارع والنوادى والملاهى والجامعات.. وعلى الرغم من ذلك تضيق عليه الضرة وتسعى للاستئثار به لحماً ودماً وعظماً.. ويبدأ الصراع بين القديمة والجديدة ولا ينتهى بموت الزوج بين موت الضرتين أو الضرات.. وبعض أصحاب.. الأثنين.. يأخذ بمقولة أبى نواس: (وداونى بالتي كانت هى الداء) فيكمل دينه بأربع، وقد «يبالغ» فى التدين فيتزوج خمساً وعشرين من الإحلال والتبديل!! ويروى لنا الأباء ان جدى الأكبر (حزين أغا) - رعرع الله قبره - كان قد تزوج بتسع عشرة امرأة من شتى مديريات القطر حينذاك ويرفع بعض الرواة العدد إلي تسع وتسعين حتى انه لم يكن يعرف أبناءه منهن، فيسأل الطفل إذا ناداه: أبى: انت ابن من من النسوان يا بنى، وما اسمك؟!

وقليلون من الرجال يستطيعون الأخذ بناصية الضرات وإشباعهن: جنساً وإنفاقاً وان كانت المرأة كالإناء المخروم لا يملأه ماء!! - لكن

الأكثرية تنقصف أعمارهم.. وفى الأزمنة الأخيرة شهدنا حركة نسائية مضادة، تجسدت في زواج بعض النسوة بأكثر من رجل والجمع بين الأضرار!! «تقزقز» هذا وتقزقز ذلك فى نفس واحد!!

وامام المحاكم وقف هؤلاء يتنازعون المرأة القادرة الفاجرة!! ومع أن المحاكم تبت فى هذه الحالة بسجن المرأة فإنها لا تستطيع ان تبت فى نسبة الجنين أو الطفل الذى أنجبته أثناء حالة الجمع الزوجى هذه!! فيصبح الطفل ابنا لثلاثة: رجلين وامرأة واحدة!!

أما ما توقعه الضرة بضرتها من أذى وما تكنه من حقد وحسد فأمر مسلم به.. وتمارسه المرأة بالتنغيص على زوجها، ثم النميمة على ضرتها وتنفيره منها، فاذا كانت بيضاء فهى باردة كلوح الثلج، واذا كانت سوداء - ولا وسط!! - فهى فحمة، وهى دائماً «طرشها الكلب» وإبرة مصدية علي الكوم مرمية!! والجملة الأخيرة هذه من إبداعات نساء الحوارى في القاهرة!!

وينتقل الأذى إلى الأبناء ويتمثل في كراهية لهم رغم براءتهم من ذنب التنافس بين الأمهات، ويتطور إلى محاولات السم أو منع الإنجاب أو السحر وقراءة «عدية يس» وربما «ربط الرجل» لا يقرب أيا من النساء!!

وأشد رد فعل لقيته زوجة من ضرتها هى ما فعلته الزوجة «القديمة» لعز الدين أيبك المملوكى ضد زوجته «الجديدة» السلطانة شجرة الدر.. فشجرة الدر القوية المستبدة قاتلة الرجال ومقاومة الصليبيين سقطت قتيلة علي يد «القديمة»!!

وعلى الرغم من مآسى الضرات فإن زوج الواحد يحسد زوج الاثنين، وزوج الاثنين يحسد صاحب العدد الأكبر.. ويبقى الحسد

نظرياً فى غالب الأحيان، فالحلم بالنساء خير من الواقع معهن.. وبعض المتزوجين يتمنون لو كانت المرأة تقسم مناصفة أو أربعة أرباع لينالوا جزءاً منها، فقليل من المرأة يصلح الحياة، وكثير منها يفسدها!! ويبقى أذكى الأذكياء دائماً من لا يقرب قليلاً منهن ولا كثيراً!!

فمن يتزوج واحدة سيتكشف له أنها لم تكن مفرداً بل جمعاً مذكراً ومؤنثاً سالماً!! وراءها أبوها واخوتها وأخواتها وعماتها وخالاتها وطابور طويل يتقدمه، ويتوسطه، ويتلوه أمها وأمها وأمها وأمها....... أى الحماة التى لا تمر بذاكرة زوج أو خياله إلا ولعن هذا الخيال واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم، باستثناء واحد فقط في هذا العالم إذا مرت حماته بذاكرته ثبت الذاكرة، واذا عبرت خياله استعادها وقبل يديها.. انه أنا وهى حماتى ماما «سعاد».

حماة الرجل تكن له مشاعر متضاربة ومتغيرة: فى أثناء الخطبة هو وفلذة كبدها وله يهون الغالى والرخيص، لأنه سيحل عنها عبء ابنتها ويسترها، وبعد الزواج هى شريك له ومنافس فى هذه الأبنة ورقيب على علاقتهما الجنسية إذا اشتد فيها فهو يرهق ابنتها، لعنة الله عليه!!، واذا تخاذل فهو ليس رجلاً، خذلها، ولم يقدر على بنات الناس، واذا احتمل الزوجة ونزقها فهو ضعيف غير قادر على «شكمها» واذا شكمها فهو عنيف فظ عديم التربية غليظ القلب!!

وربما لا يضحك مشاهد للأفلام العربية القديمة أكثر من ضحكه على أفاعيل الحموات فى الأزواج.. وكل يضحك لأنه يجد فى حماة الأفلام شيئاً من حماته، ولكن الأفلام لا تفسر الدوافع النفسية لسلوك الحموات.. إنهن بعد زمن يرين الرجل قد خطف منهن جزءاً من نفوسهن، ويتذكرون كذلك لا شعورياً أنوثتهن الآيلة للسقوط أو

الراحلة مقابل أنوثة بضة وإقبال على الحياة تعيشها الابنة مع الزوج الجديد.. يتحسرون علي أنفسهم - لا شعورياً أيضاً - فتخرج الحسرة غيظاً وحنقاً على زوج الابنة بدون مناسبة!!

وحماة الزوجة تحس حالة الخطف هذه ايضا لابنها.. فقد «لهفته» امرأة أخرى غيرها.. جاهزاً ناضجاً.. ثم إن هذه البنت الزوجة الدلوعة المايسة.. تمتص ابنها حتى ان وجهه قد اصفر - وهو في عز الحمرة - وصحته قد تدهورت، وهى مزدهرة، وجف جيبه وجحد أهله و... و... أنها اتهامات ورثتها الحماة من أجدادها في مجتمعنا العربى.

محرضات على المصائب!!

وراء كل مصيبة كبرى امرأة.. حكمة - من تأليفى!! - تذكرنا بمقولة: وراء كل رجل عظيم امـرأة.. وكلتا الحكمـتين سهلة السـياق، قـابلة للتصـديق والتكذيب معاً.. فوقـائع الحياة تحمل للمقولتين التأييـد والنفى.. لكن ما لا ينفى وجود خيط سميك بيـنهما.. فقد تكون وراء الرجل الـعظيم امرأة فعلاً، تدفعـه إلى المصائب والجرائم الكبرى في تاريخ البشرية.

ليس من شك فى ان قـابيل - ابن أبينا آدم - كـان عظيمـاً، على الأقل بصـفتـه جدنا الأكبر، وكانت تقف وراءه وأمـامه في كل حين أخته وأخت هابيل، لأنه لم يكن فى الأرض غـيـرهم مع آدم وحواء. وغـيـرة علي هذه الأخت وعـشـقاً لهـا سالت أول دماء بشرية على الأرض.

من لا يؤمن بهذه الروايات الدينيـة العتيقـة، وهذه البدايات الأولى للبشـر فإليه حكايا وقـصص أخرى قديمة ومـقبلة أيضـاً!! امرأة لوط - النبى - تحـرض أهله على الفسـاد والفسق فى الملائكة!! وباريس الفتـاة الفاتنة تثيـر حرب طروادة بين شعوب اليونان القديمة.. وداود - النبى - يدفع بقـائده إلى الميدان ليقتل ويستولى على زوجـته حسـبمـا يقول اليـهود.. وليلى تدفع قـيس بن الملوح إلى الهـيام فى الصـحراء والموت جنوناً.. وصـرخة امـرأة عربـية «وامـعتـصمـاه» تدفع الخليفـة المعتصم إلـى طحن الروم وإذلالهم.. وأيفا ظلت وراء هتلر في عنفه حـتى انتحرا معـا.. وجولدا مائير سـفكت دماء العرب بالآلاف مـا بين نساء وأطفال وشـيوخ وانتـهكت حرمـاتهم واستـولت على أراضيـهم فى فلسطين وغيـرها!!.. والمرأة الصعيدية تبرأ من ابنها اذا لم يثأر لأبيه القـتيل حتى لو كان هذا الثأر من أخيها أو ابن عمه.

المرأة الصعيدية فى هذا الجانب ليست امرأة، بل «مخزن بنزين» يصب علي النار فتشعلها قتلاً ودماراً بين العائلات، فإذا يئس رجل أو تضعضع أو استنار عقله أو خشى الله مـن عادة الثأر هذه هددته هى بـحمل السلاح، بدلا منه، ولـيجلس هو فى الدار كالنساء، ويا لها من فضيحة!!

هذه المرأة نفسهـا - بعيداً عن كونهـا صانعة للرجال في مـواقف أخرى - تقتل الرجل وتسيـر في جنازته كما يقـال.. وليس الأمر هنا علي سبـيل المجاز، إنما هو واقع.. فقد استأثرت المرأة بمهنة لم تعهد فى رجل.. إنها مهنة «العديد» فلدينا فى ريفنا - وخاصة فى الصعيد - معددات لا معددون..

ولطول مـا احتـرفن المهنة، وأجـدن اللطم والحـزن والنواح، وهو مكروه شرعـاً ومنهى عنه، أنتجن فناً كـاملاً، استأثـر بجنس شعرى اسمـه العديد، يدفع كل من ينصت إليه إلى الهم والكآبة واليأس من الحياة وانتظار عزرائيل يطل من كل باب وشباك وفى كل برهة..

تقول المعددة القنائية:

قليل الخليفة.. ليه بنيت لك بيت
وليه سبته.. وزى الحمام فريت؟
قليل الخليفة.. لفوه فى سرواله
ولا عادت الجلسة تجيب ساله
قليل الخليفة.. لفوه في بشته
ولا عادت الجلسة تجيب سيرته
يا ريت لابويا ولد ومتهبل

يمسك جريد النخل ويسبل

ياريت لابويا ولد وهبيل

يمسك جريد النخل لما يميل(٣٢)

فكل هذا الذى كان لم يكن.. كل شئ إلى عدم وفناء.. فلماذا حلم فى هذه الحياة وبنى لنفسه بيتا؟! هو لم ينل من كل ما قدمت يداه فى دنياه سرواله، ملفوفاً فيه!!

والمعددة منهن تطلق صيحاتها العدمية، فإذا بالإيمان بالقضاء يفر من قلوب البشر، واذا بطلب المغفرة للراحل يتحول إلى مندبة وفرار من الدنيا وما فيها.

وعلى الرغم من عظمة هذا الفن، بما يملك من أدوات التأثير النفسى ومن صور الخيال وبلاغة الأداء فإنه فن عدمى ضار.

ولأن هؤلاء المعددات فنانات بالسليقة والوراثة والتلقين فهن يدرسن حالة «مقصوف العمر» ويضعن لكل مقام مقالاً.. ما بين الطفل والشاب والشيخ والمرأة والرجل والفتاة، فتقول المعددة فى الشاب مثلاً:

(يا شاب يا مكشمر

عود القنا لا أعوج ولا مكسر)

يا شاب يا خايل..

عود القنا لا أعوج ولا مايل

ناس العروسة جابوا الغدا رغفان

لقيوا العروسة والعريس غضبان

ناس العروسة جابوا الغذ طايب

لقيوا العروسة والعريس غايب

×××

طوبة الفساقى طوبها منيل

وحطوا فيها الجدع عويل

طوبة الفساقى طوبها لبينى

وحطوا فيها أعز من عينى

×××

ابكوا عليه يا بنات عمه

عمر المصيخة ما جات من يمه

ابكوا عليه يا بنات خاله

عمر المصيخة ما جات علي باله

×××

يا غاسله دبدب علي كتافه

رايح حزين.. الفرح ما شافه)(٣٣)

العديد كما بدا لنا يستبعد مفردات الموت الصريح كالقتل والدم والثأر.. وينتقى للشاب مفردات «عويل» تصغير عيل، الجدع، حزين، غضبان.. وهى صفات للأحياء.. ويقيم مفارقة فاجعة فى حالة عرس، بدون عريس.. فالعريس لم يمت، بل غضبان، وغايب، وحزين.. وعلى الرغم من عروبة المفردات فإن المعانى

والروح فرعونية أو مصرية قديمة.. فكل ما يحدث للميت هو الانتقال من عالم لعالم، لا الفناء.. لكن العالم الثانى هذا مخيف، مظلم، وإلا ما أشاعت المعددات جو الكآبة هذا واليأس، ولركدت مهنتهن!!

لكن لأسباب أخرى ركدت المهنة - الفن - فقد انتصرت - بعد سنين طويلة من القهر والجفاف - روح التفاؤل والغد علي روح القنوط واليأس فى الصعيد - منبت العديد - وانتشر الوعى الدينى الصحيح الذى ينفر من هذا السلوك المرفوض شرعاً، واختفت المعددات أو كادت، مع ما اختفى من مهن كالحلاق البلدى، والداية وضاربات الودع..

ونحن فى ذكر الصعيد والثأر والقتل، يحضرنى ان عادة الثأر هذه عربية جلبت مع أجدادنا من القبائل العربية الفاتحة لمصر، وكانت قد كمنت فى نفوسهم زمناً مع توهج الاسلام فى قلوبهم، ثم صحت النار من تحت الرماد بعد الاستقرار فى شتى بقاع الصعيد، والانشغال بتحصيل الرزق والقوت، في بيئة أقرب لبيئة الجزيرة العربية بعض القرب، من صحارى، وهضاب، وجفاف وضيق عيش، وحرارة قاسية..

استأنفت المرأة الصعيدية تحريضها على الثأر كعادة جدتها القديمة ببلاد نجد والحجاز واليمن، والجدة التى أدت مهمة التحريض بكل طرائقه لتستفز أهلها ليسفكوا الدماء وليردوا القتلة بقتلتين وأكثر.. فهذه امرأة من غامد تسخر من أهلها المهزومين المنكسرين علي يد فارس واحد هو ربيعة بن مكدم.. تقول المرأة الغامدية:

ألا هل أتاها على نأيها

بما فضحت قومها غامد

تمنيتم مائتى فارس

فردكم فارس واحد

فليت لنا بارتباط الخيول

ضأنًا لها حالب قاعد (٣٤)

المرأة -وش المصايب- لا تحرضهم مباشرة على استرداد كرامتهم المسفوحة بل توبخهم بخورهم الشديد، وتتمنى لو أن لهم بدل هذه الخيول المرابطة لديهم نعاجًا وخرافًا يحلبونها، وهذا تعريض لا بالخيول -أداة الحرب- بل بالمحاربين أنفسهم، فلو أن هؤلاء الرجال الذين هزمهم فرد واحد كانوا نعاجًا لكان خيرًا للقبيلة منهم!!

وبمثل هذا التحريض على الحرب كاد العرب يفنون أنفسهم فى حرب داحس والغبراء والبسوس.. ونرى -رغم بعد الزمن- فى أيامنا كل يوم قتيلاً ضحية لامرأة، لا النساء القاتلات لأزواجهن المعبئات لهم أكياس البلاستيك فقط، بل من تدفع عاشقها لقتل زوجها أو أخيه، أو صديقه، أو زميله.. ومن تدفع رفيقها للسرقة والنصب والاحتيال والاتجار فى المخدرات وهناك الأسوأ من هذا جميعا: من تدفعه إلى أداء الأغانى الشبابية فى الملاهى وفى التليفزيون!!

****

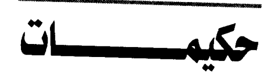
المرأة الجميلة، الضعيفة، الرقيقة.. كيف تفعل هذى الأفاعيل؟! تفعلها لأنها جميلة ورقيقة وضعيفة.. لم تملك القوة العضلية، فملكت ذا القوة العضلية بجمالها ورقتها والرجل لا يقتل الرجل

غالبـا إلا لسبـبين: المرأة والمال.. أو المرأة والمرأة.. فالمال نفـسه يوظف لصيـد النساء.. صيدهن زوجـات، أو عشيقـات، أو إماء.. فكأن المال والدم فداء للمـرأة الجمـيلة الضعيـفة الرقيـقة.. لكن السـماء والزهر والبـحر والنهـر أجمل والنسـمة والعـصفـورة والجدول الرقـراق أرق وأضعف ولا يقـتل بشر بشرا لأجلـها.. مظاهر الجمـال- وإن تفاوتت علوا وانسيابا- وكذا مظاهر الضعف والرقة لا تحمل هذا السر المعجز، القـبيح الجـمـيل، الراقى المتـوحش: غريزة الجنس.. فـكل سبل الرقـة والضعف والجمال الأنـثوى طريق إلى الجنس وهو طريق لا يملك بشر سوى رده أو الارتداد عنه.. وبقدر «استـواء» الرجل يشق سبيله هذه، قد يراها مـعبدة، وقد يعـبدها بنفسه، وقـد تكتنفها النيران والـصخور والجبـال فيزيلـها جمـيعا.. ولابد أن يفـعل.. فإذا لم يفـعل انقرض.. رجلا وامرأة وانقرضت الحياة من الأرض جميعا.. وكلا الرجل والمرأة لا ينحـرف عن غريزة البـقـاء البشـرى والحـيوانى والنبـاتى.. المرأة لا تملك تعبيد الطريق، والرجل يستطيع، فتتخذه يدا لها وقدما ومغفلا!! يكذب، ويسرق وينـصب، ويقتل بمسمـيات شتى: الـدفاع عن النفس، والكرامة، وصيـانة الحرمات.. وقد يفعل بيده المجـردة كقابيل وهابيل أو بمدفع ودبابة وصاروخ وطائرة فى زمننا الراهن.

الغـريزة لا تعنى التدمـير دائـمًا، ولو كـانت تدميـرًا لا غيـر، لما نمت البشرية وتطور العالم فالأصل فيها الخير، والسعادة، والخلود.. وليس أسـعد للإنـسان السـوى من لحظة جنس مع من يـحب.. وليس ينفلت من هذا الحكم عظيم ولا حقير، نبى ولا شيطان بشرى.. بل الأنبياء -

خيرة البشر- عاشوا هذه اللحظات أعمق وأكثر من غيرهم.. تزوجوا الجميلات والكثيرات وكل نبى حسب زمنه باستثناء عيسى عليه السلام الذى رفع من الدنيا مبكراً فلم تعرف له علاقة بامرأة.. وهو حالة لا مثيل لها من آدم حتى تحكم النساء العالم كله ويفترسن الرجال فرادى وجماعات وتدفعهن العاطفة والغريزة إلى تدمير العالم كله.. ربما!!

وحتى لا تجرف غريزة الجنس حياة البشر أو توقف تطورها. كما جمدت تطور الكائنات الأخرى. حاول الإنسان أن يضبطها كما يضبط أمواج الأنهار.. فتحيى الزرع والناس لا تدمرهم.. وضعت القوانين المتدرجة من امتلاك النساء حسب القوة العضلية للرجل، إلى تحديدها فى زوجات وإماء، إلى إلغاء الإماء والاكتفاء بعدد من الزوجات لا يتجاوز الأربع فى الإسلام أكثر الديانات تسامحًا.. وما يحدث من تخريب وقتل وانتهاك للنظام الإنسانى الحالى بسبب غريزة الجنس مرجعه محاولة بعض البشر لخرق نظم الإنسان لتحديد الملكية الجنسية!! أو لعجز بعضهم عن تحقيق الحد الأدنى لهذه الملكية أو لهذا الحق.. وحول هذا الخلل تدور كل الجرائم الحديثة على المستوى الفردى خاصة.. فيبدو الرجل بقوته فى المواجهة وتبدو المرأة بضعفها ورقتها فى الخلفية. فتصبح وراء كل مصيبة كبرى امرأة!!


حكيمـــــــات

حكيمات النساء نادرات.. وحكمة المرأة لا نقصد بها فى بعض معانيها معالجة أمور الفلسفة من نظرة شمولية للكون والعلل وربط الأسباب بالمسببات فيما يشبه النظريات العامة المطلقة.. لا نقصد بالمرأة الحكيمة هنا كونها فيلسوفة مثل الفيلسوفة المصرية القديمة هيباتيا.. بل بصفتها صاحبة خبرة فى الحياة حولها، وصاحبة رؤية صائبة فى الحكم على سلوك البشر، وفى التنبؤ أحيانا بمجريات القادم من الأيام والأحداث. ويحفظ عنها قومها بعضا من أحكامها أو حكمها هذه.

والتاريخ لم يمنح من صفحاته غير أسطر قليلة لهؤلاء النسوة الحكيمات.. ولا يفوتنا التنبيه إلى أن هذا التاريخ -المسجل- صناعة رجالية.. وقد يهمل من النساء ماهن جديرات بتصدره، ويصدره من الرجال ما هم جديرون بالإهمال أو اللعنة.

لكن ما لم يهمله التاريخ -الرجالى- هو ما يقترب من احتكار المرأة وخاصة فى أيام الحرب القديمة لمهنة الكهانة.. الكاهنات كثيرات.. والكهان قليلون.. وربما كانت المرأة الكاهنة هى الوجه الآخر للرجل النبى.. فالواقع إحتكر النبوة للرجال بما تحمل من أعباء الدعوة والمواجهة والأذى والاحتمال والجلد، وقبل هذا امتلاك صاحب الرسالة الإلهية لمصيره الفردى فى الحديث والتفرغ للعبادة ونقلها للناس أو مواجهتهم بها.. وقد عرف من النساء (الكواهن: الشعثاء، وطريفة الخير التى تكهنت بسيل العرم وخراب سد مأرب، والزبراء، وكاهنة ذى الخلصة التى تكهنت بما فى بطن رقية بنت جشم، وسلمى الهمدانية والعجفاء بنت علقة، والعفيراء)(٣٥) والكهانة شىء من الحكمة، ومنها كذلك حسن التفسير للأحداث والتفصيل للعبارة بحيث تصيب لب الحقيقة، وامتلاك بلاغة اللغة وجرأة التعبير.. وبهذه المعانى فقد (نبغ فى مجال الحكمة نساء كثيرات، ومنهن عثمة بنت مطرود البجلية، والحمراء بنت ضمرة، وحبى بنت مالك

العدوانية، وعصام الكندية، والعجفاء بنت علقمة السعدى، والخنساء بنت عمرو بن الشريد، وقذور بنت قيس بن خالد الشيبانى)(٣٦) وجل الحكيمات ينتسبن لأيام ما قبل الإسلام فى الجزيرة العربية، ولا يكاد يذكر للشعوب الغربية فى تلك الأثناء أن لديها مثل هؤلاء الحكيمات.. فبلاد أوروبا كانت خالية حينذاك من الحكيمات -على ما يبدو- من الأنبياء على وجه التأكيد.

حياة العربى حينذاك -رغم صرامة الشمس المحرقة فى الطبيعة -مغلفة بضباب المستقبل، فى حياته وفى قوت يومه: متى يهبط المطر، وهل تنفد الآبار؟!

وأين يجد الكلأ لدابته؟ ومن سيغير على خيامه ومرابطه وحريمه؟ ومتى سيغير هو على غيره؟ وهل تربح تجارته القليلة مع من حوله من الشعوب أم تخسر أم يقتنصها قطاع الصحراء وذئابها؟! وهل سينجب ذكرًا -وذكورًا- يحمل اسمه ويدافع عن القبيلة أم أنثى تحمل له الخنوع واحتياج الحماية؟!

هكذا تنشط الكهانة، وهكذا تعبر المرأة عن وجودها كاهنة حكيمة تستشار فتشير، وتستفتى فتفتى، وتستنبأ فتتنبىء، حتى فى أمور الجنس والفحولة.

قال عامر بن عبدالله الفزارى: جُمع بين هند وجُمعة، فقيل لجُمعة: أى الرجال أحبُّ إليك؟

فقالت: «الشّنق الكَتَد، الظاهر الجَلَد، الشديد الجذب بالمسد» وقيل لهند: أى الرجال أحب إليكِ؟: قالت: «القريب الأمد، الواسع البلد، الذى يُوْفَد إليه ولا يَفد». وقد سئلت هند عن حر الصيف وبرد الشتاء، فقالت: «من جعل بؤسًا كأذى» وقد ضرب بها المثل. فمن ذلك قول ليلى بنت النضر الشاعرة:

وكنر بن جدعان دلالة أمةً

وكانت كبنت الخس أو هى أكبر

وقال ابن الأعرابى: يقال بنت الخس، وبنت الخص، وبنت الخسف وهى

الزرقاء. وقال يونس: لا يقال إلا بنت الأخس. وقال أبوعمرو بن العلاء: داهيتا نساء العرب هند الزرقاءوعنذ الزرقاء، وهى زرقاء اليمامة(٣٧).

وتنحصر عظمة الرجل- الذى تختاره المرأة أو يعجبها- حسب رأى هند وجمعة فى القوة والحسم والسؤدد بمعانيه الواسعة.. ولا تنخدع حكيمة أخرى هى عثمة بنت مطرود البجلية بمظاهر الرجال وهيئتهم، ماداموا غرباء عنها غير معروفى الخصال، وتهدى أختها نصيحتها هذه فى حكاية طويلة محبوكة الأركان، أقرب ما تكون للقصة بمعناها الحديث.

كانت عثمة بنت مطرود البجلية ذات عقل ورأى مستمع فى قومها، وكانت لها أخت يقال لها: خود، وكانت ذات جمال وميسم وعقل، فخطب سببة إخوة غلمة من بطن الأزد خودًا إلى أبيها، فأتوه وعليهم الحلل اليمانية، وتحتهم التجائب الفره، فقالوا: نحن بنو مالك بن غفيلة: ذى النحيين، فقال لهم: انزلوا على الماء، فنزلوا ليلتهم، ثم أصبحوا غادين فى الحلل والهيئة، ومعهم ربيبة لهم يقال لها الشعثاء: الكاهنة، فمروا بوصيدها يتعرضون لها، وكلهم وسيم جميل، وخرج أبوها، فجلسوا إليه، فرحب بهم، فقالوا: بلغنا أن لك بنتا، ونحن كما ترى شباب، وكلنا يمنع الجانب، ويمنح الراغب، فقال أبوها: كلكم خيار، فأقيموا نرى رأينا، ثم دخل على ابنته، فقال: ما ترين، فقد أتاك هؤلاء القوم؟ فقالت: «أنكحنى على قدرى» ولا تشطط فى مهرى، فإن تخطئنى أحلامهم، لا تخطئنى أجسامهم، لعلى أصيب ولدا، وأكثر عددًا فخرج أبوها فقال: أخبرونى عن أفضلكم، قالت ربيبتهم الشعثاء الكاهنة: «اسمع أخبرك عنهم: هم إخوة، وكلهم أسوة. أما الكبير فمالك، جرىء فاتك، يتعب السنابك، ويستصغر المهالك. وأما الذى يليه فالغمر، بحر غمر، يقصر دونه الفخر، نهد صقر. وأما الذى يليه فعلقمة، صليب المعجمة، منيع المشتمة، قليل الجمجمة. وأما الذى يليه فعاصم، سيد ناعم، جلد صارم، أبى حازم.. جيشه غانم، وجاره سالم، وأما الذى يليه

فثواب، سريع الجواب، عتيد الصواب، كريم النصاب، كليث الغاب. وأما الذى يليه، فمدرك، بذول لما يملك، عزوب عما يترك، يفنى ويهلك. وأما الذى يليه فجندل، لقرنه مجدل مقل لما يحمل، يعطى ويبذل، وعن عدوه لا ينكل «فشاورت أختها فيهم، فقالت أختها عثمة: «ترى الفتيان كالنخل، وما يدريك بالدخل. اسمعى منى كلمة: إن شر الغريبة يعلن، وخيرها يدفن، انكحى فى قومك، ولا تغررك الأجسام «فلم تقبل منها، وبعثت إلى أبيها: انكحنى مدركا، فأنكحها أبوها على مائة ناقة ورعاتها، وحملها مدرك، فلم تلبث عنده إلا قليلا، حتى صبحهم فوارس من بنى مالك بن كنانة، فاقتتلوا ساعة، ثم إن زوجها وأخوته وبنى عامر انكشفوا، فسبوها فيمن سبوا، فبينما هى تسير بكت، فقالوا: ما يبكيك، أعلى فراق زوجك؟ قالت: قبحه الله، قالوا: لقد كان جميلا! قالت: قبح الله جمالاً لا نفع معه، إنما أبكى على عصيانى أختى، وقولها: ترى الفتيان كالنخل وما يدريك بالدخل، وأخبرتهم كيف خطبوها؟ فقال لها رجل منهم يكنى أبا نواس، شاب أفوه أسود مضطرب الخلق: أترضين بى، على أن أمنعك من ذئاب العرب؟ فقالت لأصحابه: أكذلك هو؟ قالوا: نعم إنه مع ما ترين ليمنع الحليلة، وتتقيه القبيلة، قالت: هذا أجمل جمال، وأكمل كمال، وقد رضيت به، فزوجوها منه.)(٣٨)

وجملة عثمة: «ترى الفتيان كالنخل، وما يدريك بالدخل «ليست مجرد سجع وتقسيم موسيقى عذب إنما هى حقيقة حياتية استقتها هذه البدوية من صفحة الطبيعة المفتوحة المكشوفة للعقول الكبيرة.. وتتلوها حكمة ثانية فى السياق نفسه، وفى المستوى نفسه من العمق وخبرات الحياة: «إن شر الغريبة يعلق، وخيرها يدفن» ليست الغريبة وحدها بل الغريب أيضًا، خاصة فى المجتمعات المغلقة المتحجرة، كل غريب ينظر إليه بارتياب، وقد يؤذى لأنه غريب.. وتجاوزت معانى الغربة ما تقصده حكيمة العرب إلى أنواع شتى من الاغتراب، فالأنبياء غرباء فى

أقوامـهم، والمفكرون غرباء، ودعـاة التغـيير والحق والعـدل بعامـة غرباء، فـيعلن شرهم، ويدفن خيرهم!!

وما دامت الحكمة دستور البشر فى زمان ما ومكان ما، وقد وصلت إليها بعض عقولهم الحـية الفذة بعد جـهد، فإن من يخرج عليـها ينال العقاب، وجـاء عقاب «خود» بالزواج من «شاب» أفوه أسود مضطرب الخلق فكان بئس المصير!!

وإذا كانت مقـاييس «جودة» الرجل لدى الحكيمات هى الـقوة والسؤدد والذود عن المحارم، لا الشكل الظاهر والمضمون الفارغ فإن فـحولة أو عظمة الحيوان لها مقاييس أيضًا.

قال الخُسّ لابنته هند: أريد شراء فحل لإبلى. قالت: «إن اشتريته فاشتره اسجح الخدين، غائـر العينين، أرقَبَّ، أحزَمَ، أعكى، أكْوَم، إن عُـصِـىَ غَشَـم، وإن أُطيع تَجَرثَمَ». وهى الـتى قالت لما قيل لهـا: ما حـملك على أن زنيت بعبـدك؟ قالت: طول السِّـواد، قرب الوساد، السِّـواد السِّرار. أسجح: سهل واسع. يقال: «ملكت فـاسـجح». أرقب: غليظ الرقـة. أحْـزمَ. منتـفخ المحـزم. أعكى: العُكْوة مـغـرز الوركين فى المؤخّر تصفه بشدة الوركين. إن عصى غشم: إن عصته الناقة غصَـبهَا نفسـها. تجرثم: أى بقى، مأخـوذ من الجرثومة، وهى الطين والتراب يُجـمع حول النخلة ليقويها تصفه بالصبر والقوة على الضراب. أكوم: عظم السنام.) (٣٩).

ووصفـها لفحل الإبل لا وصف عـالمة بمكونات بيئتـها فقط، بل وصف خبـيرة بالجنس أيضا!! ويتأكد هذا الظن فى ثنايا الحكاية التى تفصح عن إتيانها الزنا مع عبد لها.. وورد السـؤال إليها مستنكرًا، لا الممارسـة، بل من مارست معه الجنس، وجاء ردها حاضـرًا مبررًا بصدق الدوافع.. ووراء الحدث والرد مـعنى آخر: إنها معـتادة أن تأتى هذا مع الأحـرار، وحين عجزت عـن صيد رجل حـر فعلتـها مع أقـرب عبـد تيسـر لها.. وإذا لم تكن الحكيمـات ولا الكاهنات زاهدات بل كن

نساء كالنساء، ولم ينقص هذا من قدرهن ومن حكمتهن فى نظر أهلهن فى تلك المجتمعات القديمة، ولم تحولهن حكمتهن عن مزاولة الحياة البشرية بأخطائها وصغائرها، فالأنبياء أنفسهم يخطئون.. ومن الخطأ والصواب ورصد أخطاء الآخرين وصوابهم كانت الحكيمات حكيمات.

والحكمة قول أكثر من أن تكون فعلاً.. وما وصلنا -غالبًا- من حكمة هؤلاء كان لغة خاصة أى مقولات من النثر الفنى المركز الموحى الدقيق المعنى المشحون بالمواقف والخبرات والتلميح والإيحاء.

قال المبرد: كنا عند المازنى فجاءته أعرابية كانت تغشاه ويهب لها فقالت: أنعم الله صباحك أبا عثمان، هل بالرمل أو شال؟ فقال لها: يجيىء الله به. فقالت:

تعلمن والذى حج القوم　　　　لولا خيال طارق عند النوم

والشوق من ذاكراك، ما جئت اليوم

فقال المازنى: قاتلها الله، ما أفطنها!! جاءت مستمنحة، فلما رأت أن لا شىء جعلت المجىء زيارة تُمن بّها علىَّ. قال اليشكرى: الأوشال جمع وشل وهو الماء القليل، وهو مثل هنا أى عندكم من ندى؟) (٤٠)

وحكيمة أخرى مجهولة ذهبت مستمنحة، ووقفت على (قيس بن سعد بن عبادة، فقالت: أشكو إليك قلة الجرذان، قال: ما أحس هذه الكناية! أملأوا لها بيتها خبزًا ولحمًا وسمنًا وتمرًا) (٤١) وأمثال هذه المرأة كثيرات، ذهب الكثير من مقولاتهن وبقى القليل، لكن مشهورات النساء بقى جل أفعالهن وأقوالهن فى الذاكرة الجماعية حتى التقطتها أقلام المؤرخين.. من هذا قول هند بنت عتبة.

حين أتاها نعٌى يزيد بن أبى سفيان، فقال لها بعض المعزين: إنا لنرجو أن يكون فى معاوية خلف من يزيد، فقالت هند: «ومثل معاوية لا يكون خلفا من أحد، فوالله أنْ لو جُمعت العرب من أقطارها ثم رمٌى به فيها، لخرج من أى أعراضها

شاء»(٤٢).

لم تجرفها عاطفة الأمومة إلى تعظيم سجايا الراحل على حساب المقيم، ولا حتى الصمت على أن يكون معاوية بديلاً لأخيه على عادة الناس، بل قدمت ابنها الحى إلى المعزين كما لم يقدم أحد أحداً، وأثبتت الحوادث أنها لم تبالغ وهى تصف دهاء معاوية، لقد وضعته فى «كبسولة» لمن شاء أن يعرفه ولمن لم يشأ..

ومقولتها فى معاوية فى هذا الظرف لم تأت عفوا ولا ذهبت هباء.. كانت هند تعرف قدر من أنجبت، وتعرف كيف ربته وكيف تقومه حتى وهو مقبل على أيامه العظيمة.. فهذه هى حكمتها الأخرى. (لما قدم معاوية من الشام- وكان عمر قد استعمله عليها- دخل على أمه هند، فقالت له: يا بُنىّ، إنه قلما ولدت حرةُ مثلَك، وقد استعملك هذا الرجلُ فاعمل بما وافقه، أحببت ذلك أم كرهته. ثم دخل على أبيه أبى سفيان، فقال له: يا بُنىَّ، إن هؤلاء الرَّهطَ من المهاجرين سبقونا وتأخرنا عنهم، فرفعهم سَبْقهُم وقصرَّ بنا تأخرنا، فصرنا أتباعا وصاروا قادة. وقد قلدوك جسيمًا من أمرهم، فلا تخالفنَّ أمرهم، فإنك تجرى إلى أمد لم تبلُغْه، ولو قد بلغته لنوُفست فيه.. قال معاوية: فعجبتُ من اتفاقهما فى المعنى على اختلافهما فى اللفظ)(٤٣).

وفى أكثر ما يرد إلينا من حكمة هؤلاء النسوة تقدم التصديق على التشكيك، لأن أحدًا، ليس صاحب مصلحة فى انتحال هذه الحكم أو نحلها.. لكن إذا دخلت المواقف السياسية بابًا من أبواب الحكمة أو موقفًا من مواقفها لعب بنا الشك فى المقولة وفى ملابساتها.. فلربما كانت مقولة هند الأولى والثانية- التى اتفقت فيها مع زوجها أبى سفيان- من قبيل تزكية معاوية فى صراعه على الخلافة مع على بن أبى طالب، أو جاءت توطئة لرفع اسهمه إلى أعلى ولفت أنظار المسلمين حينذاك ليسلموا له بأمورهم يومًا ما.

وإذا سلمنا بصحة المقولة الـثانية- ذات الرائحة السياسيـة الصريحة- لمحنا منها كنصيـحة ملامح النفـعية والانتهـازية الصريحة، وتأكـيد أن الغاية تبـرر الوسيلة، فليـمتـثل معـاوية وينحنى -بطول ظهره وعـرضه- لا لأجل إنقـاذ الأمة أو نـشر الإسلام أو هدف ما عام، بل ليتصـدر الحكم ويستولى على موقع النفوذ المطلق.. ولغة هند فى إشـاراتها إلى الفـاروق عمر، بقـولها «هذا الرجل»، هكذا مجـهلاً، تنضح بغـيرة وحـقـد وعدم تبـجيل لخلـيفـة المسلمين وحـاكم العالم حـينذاك.. ونصيـحة الأب أقل حدة وامـتعاضـًا وإن اتفقت فى الفـحوى مع نصيـحة الأم.. ونصيحة الأم أكثر تركيزًا وإحكامًا من مقولة أبى سفيان.

وبعد زمن غير طويل تبوأ معاوية عرش الدولة الكبرى، فكان موضوعًا لنصيحة أخرى من حكيمـة أخرى أعلى شأنًا وأعظم قدرًا، إنها أم المؤمنين عائشـة، كتبت إليه تقـول: (أما بعد، فإنه من يعـمل بمساخط الله يصر حامـده من الناس ذامًا له، والسلام)(٤٤).

النصيـحة هنا صـارت حكمة بكل أبعادها، فـهى عامة غـير مـرتبطة بزمان ولا مكان، وهى محكمة المفردات ناصعة الملامح، وهى حافلة بشحنات من المعانى قد تفصل فى صفحات طوال.

وقد لا تجهل امرأة مـتعلمة نصيحة قد لا يقل عـمرها عن ألفى عام.. المرأة التى تعظ ابنتها ليلة زفافها.. وكنا قد أوردناها من قبل ومضمونها أنه (لما خطب عمرو بن حجـر الكندى إلى عوف بن محلم الشـيبانى ابنتـه أم إياس وأجابه إلى ذلك، أقبلت عليها أمـها ليلة دخوله بها توصيها. فكان مما أوصتـها به أن قالت: أى بنية إنك مفارقة بيتك الذى منه خرجت وعشك الذى منه درجت إلى رجل لم تعرفيه وقرين لم تألفيـه، فكونى له أمة ليكون لك عبدًا، واحفظى له خصـالاً عشرًا يكن لك ذخرًا، فأما الأولى والثـانية، فالرضا بالقناعة وحسن السـمع له والطاعة. وأما

الثالثة والرابعة: فالتفقد لمواقع عـينيه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم أنفه إلا أطيب الريح. وأما الخامسة والسادسة: فالتفقد لوقت طعـامه ومنامه، فإن شدة الجوع ملهـبة، وتنغيص النوم مغضبـة. وأما السابعة والثامنة: فـالاحتراز لماله والإرعاء على حشمه وعياله. وأما التـاسعة والعاشرة: فهى لا تعصى له أمرًا، ولا تفشى له سرًا، فـإنك إن خالفت أمره أو غرت صدره، وإن أفـشيت سره لم تأمنى غدره، وإياك والفرح بين يديه إذا كان مهتما، والكآبة لديه وإذا كان فرحًا، فقبلت وصية أمها فأنجبت له الحارث بن عمرو جد امرىء القيس الملك الشاعر (٤٥).

النصيحة منطقية، كأنـها احتشدت لها احتشادًا، ونقحتها تنقـيحًا كما كان يفعل عبيد الشعـر: يكتبون القصيدة ويقعدون لهـا حولاً كاملاً.. ورغم ما توحى به من ذلة للمرأة وخنوع فإنه خنوع «تكتيكى» فإذا كانت له أمـه سيكون لها عبدًا.. إنها حكمة الحـياة البدوية والفطرية الطويلة المكتـسبة من المعايشـة المباشرة بنجاحـاتها وإخفـاقاتهـا.. ولكثـرة تردد هذه النصيـحة الجـاهلية النسـائية ورودها فى كـتب المدارس ومواعظ الخطباء أضحت من المسلمات فى العلاقات الزوجية الناجحة.. فهل هـى جاهلية فـعلاً وقـائلتهـا زوج عوف بن مـحلم؟! لا ندرى مدى صـحة النسبة، لكنها نصيحة قديمة على كل حال، ولا نعرف أحدًا نسبها إلى غير إمراة.

****

ما بين عصـور الجاهلية وصدر الإسـلام تدور أحاديث الحكيمات. فـما نصيب المرأة زمننا من الحكمـة؟! ينتـفى فرع من فـروعـها فى الواقع الراهـن بعقـلانيتـه ونزعـاته العلمـية.. إنه الكهـانة، ويبـقى من مظاهر الحكمـة سـعة الأفق ومـرونة التفكير وبلاغة القول وتحرى الحق أينمـا حل والتصريح به، واتخاذ مواقف العدل والمساواة والاستنارة وإعالة الضعيف من أقربائها فى اللغة أو الوطن والجنس.

بعض النسوة فى زمـاننا حكيمات بـهذا الفهم للحكمـة.. منهن صاحبـة النفوذ

والسلطة كأنديرا غاندى، ومارجريت تاتشر. رغم عدائها للعرب والعالم المتخلف بصفة عامة!! وبى نظير بوتو، والشيخة حسنة فى بنجلاديش.

ومنهن معلمات المجتمع مثل صفية زغلول وإيفا بيرون الأرجنتينية والأم تريزا وسوزان مبارك التى وظفت نفوذها السياسى لإصلاح ثقافى واجتماعى بإرساء بعض الهيئات والمؤسسات العامة، كالمجلس القومى للمرأة، ومهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة ومكتبة الإسكندرية.

ومن حكيمات زمننا كذلك، بل أبرزهن صاحبات القرطاس والقلم، طليقات اللسان، حديدات النظر، صميمات الرأى كملك حفنى ناصف «باحثة البادية» وعائشة عبدالرحمن «بنت الشاطىء» ونعمات أحمد فؤاد، وأشهرهن جميعًا مى زيادة التى كانت طرفًا فى جانب من الصراع بين د.طه حسين ومصطفى صادق الرافعى كان قد (شجر بين الدكتور طه حسين وصادق الرافعى خلاف أدبى على صفحات مجلة «السياسة الأسبوعية» بسبب كتاب أصدره الرافعى فى ذلك الحين، وحمل طه عليه حملة شعواء، ورد الرافعى عليه ردًا عنيفًا، وكانت خصومة حامية شغلت الأوساط الأدبية، وكتبت الآنسة «مى» نقدًا لهذا الكتاب فى «المقتطف» وافقت فيه الدكتور طه على بعض النواحى، فغضب لذلك الرافعى، وكتب إليها يقول: «يوم كتبت إليك جاءنى «المقتطف» فى محل عملى، فبعد أن فرغت ما بين يدى مددت عينى فى الحديقة الجميلة التى أشرف عليها، فخطر لى أن أجمع بين مقالك، وبين هذا المنظر، وبين خيالى، فتناولت «المقتطف» وقرأته قراءة دقيقة، فأحسست بالكلام يقذف فى دمى مادة سامة، ورأيت عشرة أشهر فى عشرة أسطر، ففار دمى كله، ورميت المجلة.. ولا أزال من ذلك اليوم مريضاً إلى الآن، فقد هالنى أن أكون منك بهذه المنزلة..!! «وتالله ما كنت أحسب فى أدبك ورقتك أن

ترمينـى قبل هذا، ولكن كم تصنع الجـرأة، وكم تغر. ولعلنا ابتلينا بـطه حسين مذكراً ومؤنثاً!!). (٤٥)

وليس أشرف لامرأة من أن تـكون طه حسين مؤنثاً!!.. والجملة الـتى أطلقها الرافـعى على مى تشبـه الوشم فى ذهـن قارئهـا.. هى صـك من أديب عظيم لأديبـة بعلو الشأن والحكمـة والعمق والتنوع والموسـوعيـة، وبكل ما يتـسم به عميد الأدب العربى من صفات، مادامت هى مؤنثة!!

وعلى الرغم من أن رأى سلامة موسى غير رأى الرافعى فى مى زيادة، فإنه لا يلغى بلاغتها وقدراتها الإبداعية العالية، وإن نأت عن المجالدة والكفاح.. يقول سلامة:

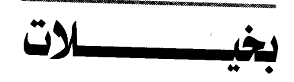
(حين أتأمل أدب مى، أجده أدب الحلاوة والطرافة فى الجملة الناعمة للمعنى الناعم، ولست أجد فيها أدب المذهب والمبدأ والكفاح، هذا الأدب الذى يضنى الأديب ويتعبده ولكنه يحييه، أى يحى نفسه.. لم تكن مى تحيا بأدبها.. لم تكن مكاحفة) (٤٦).

وحكم سـلامـة مـوسى ليس منزلا من السـمـاء فى هذا الموقف.. فـالحلاوة والطرافة والنعومة التى يصمم موسى كتـابات مى بها ليست تنزل بها عن مرتبة الأدب العالـى.. ودليلنا أن أدبها بقى كـما بقـيت حياتـها نفسـها قـصة كـفاح وصمود كبرى فى مواجهة المحن، وفيـما لا يحتمله عشرات الرجال.. ومجمل هذه المرأة «الآنسة» إبداعاً ونقـداً وحياة حكمة كبرى ونبـراس للنساء والرجال معاً.. فليس غريباً أن تدخل أبواب الحكمة من أوسعها.

لكن الكفاح والمبـدأ بتعريف سـلامة موسى يتحـقق فى كاتبة اخـرى اعتنقت الإسلام بعد تفكير وروية ودرس عميق.. هى المـفكرة الأمريكية «مريم جميلة» التى كـانت «مارجـريت ماركـوس».. وهى تعـرب عن رأيها بجـرأة فى وسط

أمريكى تشيع فيه العنصرية والعداء للإسلام والمسلمين، والتحيز الأعمى للصهيونية العنصرية.. تقول مريم : «عندما تمعنت فى الأمر، اكتشفت أن نبى الله موسى كان قد تلقى شريعة ربه فى مصر، وأن معظم أجزاء التلمود كانت قد كتبت فى المنطقة التى تعرف حالياً باسم العراق، وأن أجمل الأناشيد الدينية العبرية كانت قد نظمت فى إسبانيا المسلمة. فالعنصرية والانعزالية المتزمتة لليهودية هى التى جعلتنى أدرك وجود صلة بينها وبين سبب اضطهاد اليهود). (٤٧)

هذا الرأى القويم يتجاوز حدود العقول البسيطة التى تعبر ظواهر الأشياء عبوراً، لا تمعن ولا تخترق العرض إلى الجوهر.. هو قول حكيمة لا شك، وصاحبة موقف يصعب على أكثر الرجال احتماله.. فكلام قريباً من هذا قاد المفكر الفرنسى الكبير روجيه جارودى إلى السجن بتهمة العداء للسامية!! رغم أن كلامه ينصف العرب : الساميين الحقيقيين ضد الصهاينة : الساميين الزائفين!!


بخيــــــلات

البخل أجناس كـالبشر : بخل رجالى وبخل نسـائى، بخل بالمال وبخل بالنفس وبخل بالكلمة الطيـبة.. والعادة جـرت على حصر البخل فى الإمـساك على المال دون غيره.. وحكايا البخلاء ـ الرجال ـ لاتكاد تحـصى.. سجلتها كتب التراث، وعرضـتهـا الإبداعات الأدبية : رواية ومـسرحـاً وقصة وشـعراً، وكذا الـكتابات الإذاعية..

هذا الفيض من كتابات البخل والبـخلاء مدفوع برفض الظاهرة، والتحريض على البـرؤ منها، ويـجد الكتـاب فى نوادر أهلهـا ما يلفت الـذهن ويستـجلب البسـمة وربما العظة (٤٨).. ومـثلما يسـوق الكتاب باستنكار وسـخرية حـياة هؤلاء البخلاء، يعـرضون لأهل الكرم والسخاء ويخلدون أسماءهـم، فيقال : أجـود من حاتم، أى حـاتم الطائى.. ويقـال لدى العـرب الأقـدمين إن (الذين انتهى إليـهم الجود فى الجاهليـة ثلاثة نفر : حـاتم بن عبدالله بن سـعد الطائى، دهر بن سنان المرى، وكعب بن مامـة الإيادى.. ولكن المضروب به المثل : حاتم وحده، وهو القائل لغلامه يسار، وكان إذا اشـتد البرد وكلب الشتاء أمر غلامه فأوقد ناراً فى يفاع «التل» من الأرض لينظر إليها من أضل الطريق ليلاً فيصمد نحوه، فقال فى ذلك :

أوقد فإن الليل ليل قر ... والرياح يا موقد ريح صر
عسى يرى نارك من يمر ... إن جلبت ضيفا فأنت حر

ومر حـاتم فى سفـره على عنزه، وفيهم أسـير، فـاستغـاث بحاتم ولم يحـضره فكاكـه، فاشـتراه من العنزيين وأطـلقه، وأقـام مكانه فى القيـد حتى أدى فـداءه. وقالوا : لم يكن حاتم ممسكاً شيئاً ما عدا فرسه وسلاحه فإنه كان لا يجود بهما).(٤٩)

. وترد رواية أخرى بالعقد الفريد تؤكد على لسان نوار امرأة حاتم أنه ذبح فرسه فعلاً لإطعام جيرانه الجوعى فى أيام جدب ولم يطعم منه نسلة واحدة، كان أحوج إليها منهم)(٥٠) وقال لزوجته.. التى وبخته فيما يبدو على إسرافه :

مهلاً نوار أقلي اللوم والعذلا

ولا تقولى لشىء فات ما فعلا

ولا تقولى لمال كنت مهلكه

مهلاً وإن كنت أعطى الإنس والخبلا

أى الجن ..

ترصد الذاكرة الإنسانية لحالتى الجود والبخل هاتين فى الرجال، ولم تحفظ لنا من حالات الجود والبخل النسائى إلا ما يرتبط برجل : زوجاً أو آخاً أو أباً، وقد لا ترصد ما يستحق الاقتناص والحفر فى الأعماق.

عن الكرم، تغيب أدواته عن النساء إلا نادراً.. وصواحب الثراء فى تاريخنا البشرى والعربي قليلات، منهن السيدة خديجة رضى الله عنها الوارثة عن زوج متوف وأب راحل.. ومنهن السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد.. ولا يستطيع ذهنى «الرجالى»وذاكرتى العمياء رصد ما يزيد على خمس نسوة من هؤلاء الثريات فى التاريخ.. ومرجع ثرائهن فى كل الحالات هو الرجل.. فمم تنفق المرأة إذن؟! والمرأة ليست بعيدة عن الثراء فحسب، بل هى كذلك إحدى مكونات الثراء : الفلوس، والغنم والإبل، والأرض الخصبة، والنخيل والشجر، وآبار المياه، والدور ورياشها، والخيول والأسلحة والنساء الجوارى المتأرجحات فى الثمن من ثمن حصان وحديقة إلى ثمن مقعد فى البيت!! فمم تنفق المرأة

إذن؟! هى تنفق ــ بفتح الفاء ــ لا تنفق بكسرها!!

والمرأة ــ إحدى مكونات الثراء ــ المجرد من الملكية الخاصة إلا قليلاً، لها أملاكها الخصبة، وكنوزها المحروم منها الرجل.. فى نظرتها كنز، وفى جفنيها كنز، وفى ثغرها كنز، وفى نحرها كنز، وفى نهدها كنز، وفى خصرها كنز.. وحتى فى أطراف أصابعها.. وهذا ما ظهر منها.. فما بالنا بما بطن؟!

هو ليس ــ على ما يوحى ــ ثراء المادة فقط مرتبطة بالجنس والغريزة، بل ثراء معنوى أيضاً.. فلتعد بالنظر إلى الخلف قليلاً جداً : عدة آلاف من الأعوام!! والتقط ما أبدعه الشعراء والنحاتون والموسيقيون وأنفضه مما صيغ عن مكونات المرأة هذه وكنوزها المذكورة.. لن تجد حينها من الفن غير ظلال باهتة وحشرجات خافتة.. مجرد نية للأدب والفن.

لتدع الأدب والفن وما يسطوان عليه من كنوز المرأة، ولتعمد إلى الديانات : الإسلام والمسيحية واليهودية فهل تخلو سورة ولا موقف ولا عظة من ظلال النساء : مدحاً وقدحاً وتوصية بهن وتحقيرا لهن، وتعظيما لفضلهن؟!!

فلم يكن بعيداً أن يسعى الرجل بقوته العضلية والعقلية أيضا أن ممتلكاته فى كل زمن بهذا التاج، وأن يتشربها : بلسماً شافياً وسماً زعافاً!!

فعم تبخل المرأة إذن؟! هى تستطيع أن تبخل وتضن وأن تكرم وتسخو بما تملك وما لا يملك الرجل.. فبخلها غير بخل الرجال وسخاؤها غير سخائهم.. حتى لو كانت أمة يمكنها أن تضن بكنوزها عمن يملكها وتفيض بها على من لا يملك..

قد يستطيع المالك أن يقتنصها كما تقتنص العصفورة ويعتصرها كما تعصر الزهرة، لكن قلبها حينذاك سوف يرف فى فضاءات أخرى، ونفسها تهفو وتحط

على أغصان آخرى.. فيتحول جسدها الحى النابض إلى برودة ورماد..

المرأة إذن تملك ما تبخل به.. ولذا فمخاطبة المحبين لمحبوباتهم ينصب على خلخلة هذا البخل والمنع، وعلى استحلاب السخاء والمنح.. وهى هنا ـــ محبة أو كارهة أو محايدة ـــ مقبولة فى بخلها محمودة فى منعها..

البخل إذن فى النساء ـــ إزاء من لا يستحق ـــ ميزة، وفى الرجال عيب.. وحتى لو حاسبنا المرأة على بخلها المعهود : البخل فى المال فهو ليس عيبا فيها.. يكفيها أن زوجها يمنح أو أن أخاها أو أباها أو عمها يمنح.. وعليها هى أن تمسك..

شيمة البخل فى النساء ميزة تتصدر ميزاتها الأخرى، وتضمن للأسرة قوامها المعتدل وللحياة أن تتوازن.

الكذب منهن وعليهن !!

الكذب على المرأة صدقة.. هذا حديث غير شريف، لكنه مفيد.. وقد يبدأ الكذب المفيد عليهن منذ الطفولة الطرية.. كنا نتسلل فى عز الظهيرة هاربين من الأمهات المقيلات إلى أجنحة الشمس النارية المفروشة فوق الغيطان، وشواش النخيل، وشطان الترع.. لكن الهرب لم يكن للاستمتاع بضربة شمس لن يقوم أحدنا بعدها، بل للارتماء فى أحضان الترعة التى كنا نسميها بحرا، جريا على تسمية فرع النيل فى الفيوم «بحر يوسف».

نغرق نشع الجلود والتهاب الرءوس بالحرارة فى برودة الترعة، وليس فى حسباننا بلهارسيا ولا غيرها، إنها كائنات غير منظورة بالنسبة لنا وغير ضارة مادامت لا تلسع ولا تلذع ولا تعض مثلما تفعل الثعابين والذئاب والناموس والبراغيث من حولنا.. وبعد ساعة أو ساعات من الغطس والسباحة والقفز من المرتفعات إلى الماء ورمى أنفسنا بالطين، كان علينا أن نعود منسلين إلى بيوتنا جماعات وفرادى قبل أن تستيقظ الأمهات وفى أيديهن المقشات والأحبال والعصى الرفيعة.. فماذا لو عاد أحدنا فوجد أمه رابضة له خلف الباب؟! علينا بالاحتياط ومحاربة الدهاء الأمومى بالدهاء العيالى : نخرج من الماء فلا نرتدى ملابسنا بل نبقى فى الشمس على الشاطىء كما ولدتنا أمهاتنا — وأمهاتنا غالباً قد ولدتنا هكذا فى العراء تحت ظل شجرة أو بجوار ترعة أو جنب جاموسة نائمة — ونمرغ أيدينا وأرجلنا فى التراب بعد أن يجف الجسد والشعر.. فإذا بسمات «القشف» تعود إلى طبيعتها الأولى على الأيدى والأرجل، ولا أثر لماء فيها.. ونعود آمنين مسلحين بإجابة السؤال : أين كنت؟! كنت جالساً تحت العنبة، أو ألعب «استغماية» مع العيال أولاد محاسن جبر، أو ألمّ الرامخ من تحت النخل!!

ماذا لو نكذب عليهن؟! إنها ضربة ساخنة وحراسة مشددة وقت الظهيرة وإغلاق الأبواب من الداخل دوننا.. أو إننا ما كنا تعلمنا السباحة، ومسامرة الأطفال، والقدرة على مجاراة الحياة وآلامها ابتداء من البلهارسيا حتى الحكام المستبدين وعصابات النهب العام!! ما كنا ارتبطنا بأرضنا ومائنا وسمائنا وشمسنا بما فيها جميعاً من نار ونور وماضٍ ومستقبل.

والمرأة الأم تنتقل مع الطفل أينما حل وحينما ذهب.. تنقل معه زميلة فى التعليم والعمل، وصديقة وعشيقة، وجارة، وزوجة، وأختاً، وعابرة سبيل.. والدرس الأول فى كسب الحياة أن يكسبها الطفل : التلميذ، الرجل.. ولو صدقنا وصارحنا لكان لنا كما كان لشداد الحارثى حينما قال للسوداء «أنت سودا فى عينها»!! (قال شَدَّاد الحارثيُّ ويكن أبا عبيد الله : قلت لأمة سوداء بالبادية : لمن أنت يا سوداء؟ قالت : لسيِّد الحضر يا أصلع. قال : قلت لها : أو لست بسوداء؟! قالت : أو لستَ بأصلع؟ قلتُ : ما أغضبك من الحق؟ قالت : الحق أغضبك! لا تسبُبْ حتى تُرْهَب، ولأن تتركه أمْثَل) (٥١).

فظاهر الكلام الحق، وباطنه «المناكفة «والتطاول والأذى.. إن هذا رجل ضيف يريد أن يعرف من المقيمين فسأل أمة بصفتها «سوداء» وليس فى اللون ميزة ولا عيب.. هو تكوين خلقى ثابت منذ الولادة حتى الوفاة ومن يغضب من اللون إذا قلنا له يا أصفر أو يا أسود أو يا أبيض، كمن يغضب ممن يقول له : يا صاحب القدمين والعينين والشعر!! أما المناداة بالصلع ففيه أذى وهو شأن من يقول : يا أعرج ويا أعمى ويا أحدب..

لو أن الرجل هذا قال لها.. كذباً، يا فاتنة أو يا سيدتى.. وهى الأمة.. لبشت له وهشت!! أما مواجهتها بالحق فدفعها لمواجهته بالأذى.

ميراث الرجل من التعامل مع المرأة لقنه أن يقدم لها قبل وجبات الطعام والشراب وجبات الكذب فهى أجمل الكائنات، وأرقها، وأعذبها، ولا تتساوى معها امرأة أخرى فى شىء من هذا، حتى أمها وأختها والسيدة عائشة!! فلماذا تحب المرأة الكذب وتطلبه؟! لأنها تكذب ومن يكذب على غيره يريد أن يكذب عليه غيره، ومن ينافق ينافق.

وليس الكذب وحده صفة من صفاتها، ولا أعرف أهو ميزة فيها أم عيب!! بل كذلك إظهار غير ما تبطن.. ولنقرأ أبيات شوقى :

خدعوها بقولهم حسناء ... والغوانى يغرهن الثناءُ
أتُراها تناسب اسمىَ لما ... كثُرت فى غرامها الأسماءُ؟
إن رأتنى تميل عنى، كأن لم ... تكُ بينى وبينها أشياءُ!

نظـرةٌ، فابتسـامةٌ، فسـلام فكـلامٌ، فموعـدٌ، فلقـاءُ
يـوم كنا ـ ولا تسل : كيف كنا؟ نتهـادى من اللهـوى ما نـشاءُ
وعلينـا من العفـاف رقـيق تعبـت فى مراسـه الأهـواءُ
جاذبتنى ثوبـى العصـىَّ وقالـت : أنتـم النـاس أيهـا الشـعراءُ
فاتقـوا الله فى قلـوب العـذارى فالعذارى قلوبهن هواء (٥٢)

وشوقى «حكيم بأدواء النساء طبيب» فى أبياته هذه، يضىء حول سمات عـدة فيهن.. ويأخذ شيئاً لنفسه من هذه السـمات : الخوف والتراجع والتردد حين ينتهى من النظرة إلى اللقاء، ولنا أن نتخيل ما فى لقاء رجل وامـرأة، ثم يتطور المعنى إلى التهادى من الهودى ما يشاءون، فلا شك هنا فى أنك علمت من المعنى، مـا علمته أنا، وابتسمت بسمتى الخبيثة أيضاً، وتمنيت أمنيـتى الغريزية كذلك.. لكـن الرجل يخذلنى ويخذلك ـ بعـد أن يقاطع خيـالاتنا هذا ويؤكدها فى صيـغة نفيـها بقوله : ولا تسل كـيف كنا؟ ـ ثم يأتى الخذلان المبين لا لظنوننا المشـروعة وغـير المشـروعة فقط، بـل للصورة الشـعرية أيضا حـين يفرغ اللحظة الإنسـانية من شحناتهـا الملتهـبة : وعلينا من العفـاف رقيب! ! خـيبك الله! ! فى خوفك وتراجعك وتأثرك بطبائع النساء! !

وربما جابهـتنى بأنى أظلم المرأة بوصـمها بهـذه الصفـات، فأجابهك أنا بـقولك : أنت امرأة! ! ستـثور فى وجهى وقد تقتلنى! ! على الـرغم من أننى لا أجردك من الذكورة ولا مراسيـمها بل أعنى أنك «بدون كلمة»، لا تثبت على موقف ولا تدافع حتى النهـاية عما تعتقـد، ولا تستقر على شعـور دائم، ولست شجاعاً، كنت تواجـه الوحوش فى الغابات قديماً، وتواجـه التخلف والجـهل والاستبـداد حديثاً.. لا أظلـم المرأة إذن بل أشخِّصـها.. وأحبب فـيها عـيوبها قـبل ميزاتهـا.. فدعنا نتحـدث فى هدوء.. سأقول لك إن كـيدهن عظيم، وسوف تخشى الرد علىَّ إذا كنت مسلمـاً لأنك تعتقد بإيمان راسخ فى كلام الله، وإذا كنت غيـر مسلم احـتراماً لمشاعرنا كـمسلمين، خـاصة لو عرفت أن هـذا قول الله سبحانه.. ودعنى أحدثك بغير نغمة التـهديد والتخويف، بما قاله أبوالفرج الأصفهانى فى

هذا الكيد.. (حدثنا محمد بن زُهير قال حدثنا المدائنيّ : أن أبا دهبل كان يهوى امرأة من قومه يقال لها عَمْرة، وكانت امرأة جزلة «أصيلة الرأى» يجتمع إليها الرجال للمحادثة وإنشاد الشعر والأخبار، وكان أبودهبل لا يفارق مجلسها مع كل من يجتمع إليها، وكانت هى أيضاً محبةً له. وكان أبودهبل رجلاً سيداً من أشراف بنى جمح، وكان يحمل الحمالات «الدية» ويعطى الفقراء ويقرى الضيف، وزعمت بنو جمح أنه تزوج عَمْرة هذه بعد ذلك، وزعم غيرهم أنه لم يصل إليها. وكانت عَمْرة توصية بحفظ ما بينهما وكتمانه، فضمن لها ذلك واتصل ما بينهما. فوقفت عليه زوجته فدسّتْ إلى عمرة امرأةً داهية من عجائز أهلها، فجاءتها فحادثتها طويلاً ثم قالت لها فى عُرْض حديثها : إنى لأعجبُ لك كيف لا تتزوجين أبا دهبل مع ما بينكما! قالت : وأىُّ شىء يكون بينى وبين أبى دهبل! قال : فتضاحكت وقالت : أتسترين عنى شيئاً قد تحدثت به أشراف قريش فى مجالسها وسوقهُ أهل الحجاز فى أسواقها والسُّقاةُ فى مواردها! فما يتدافع اثنان أنه يهواك وتهوينه، فوثبت عن مجلسها فاحتجبتْ ومنعت كل من كان يجالسها من المصير إليها. وجاء أبودهبل على عادته فحجبته وأرسلت إليه بما كره)(٥٣). هكذا لا يفل النساء إلا النساء، وقد غلبت فيهن العجوز الخبيرة لا المثقفة الأديبة.

سأقول لك هى نكدة أيضا بالفطرة والوراثة وبدون مناسبة.. لا لأن زوجتك فى البيت تفتش عن ذرات النكد وترقعها قطعة قطعة حتى تضحى دانة مدفع تنفجر فى وجهك صباح مساء.. فهذا أمر مفروغ منه، ولا يحتاج إلى مواساة.. بل لأن النساء قد تنكد وتنوح وتهدر الدمع مدراراً، ولا نعرف لماذا؟! ربما كانت الصنعة التى نبغت فيها المرأة دون الكائنات جميعا هى «سلعة النكد» تصنعها سائلة وغازية ومعلبة ومجففة ودائرية ومستطيلة ومقعرة المهم ألا تدع ثغرة واحدة من جسد الرجل لا يخترقها نكدها.. ولا تسألنى عن المبرر.. واستمع الى ماسبيرو وهو يقول : «فى الفترة من الخامس من يوليو سنة ١٨٨١ إلى الحادى عشر منه، زار موظفو مصلحة الآثار المخبأ وأخرجوا الآثار منه ونقلوها إلى الأقصر حيث أسرعت سفينة المتحف بالمجىء لحملها، وبمجرد أن شحنت السفينة اتجهت إلى بولاق بشحنة الملوك، ثم حدث شىء غريب بين الأقصر وقفط على

ضفتى النيل كلتيهما، إذ تبعت النساء الفلاحات السفينة، وقد «شعثن» شعورهن وأطلقن صيحات الحزن)٥٤ لماذا؟ ليس مجديا أن تبحث عن مبرر منطقى!!(٥٤)

وما دمنا بصدد «ميزات» المرأة من كذب ونكد وغم مقيم فلا تنس «ميزة» الحمق فيهن، وقد يورثنها للأبناء.. والمرأة إذا ولدت الحمقى فى مُحْمِقَةٌ، ولا يعلم ذلك حتى يُرى وَلَدُ زوجها من غيرها أكياساً. وقالت امرأة ذات بنات :

وما أبالى أن أكون مُحْمِقَةْ إذا رأيت خُصيّةً معلَّقة»(٥٥).

فالولد الأحمق خير لدى هذه المرأة «الحمقاء» من البنات، وليس يضيرها حمقه ما دامت ترى خصيته معلقة كالخرج بين فخذيه!! فهذه الخصية سوف تحارب الأعداء، وربما تقصى زوائدها لتقيم بها خيمة فى الصحراء!!

هذه جدة من جداتنا الحمقاوات القديمات، لكن الحمق تسلل فى عروقنا حتى رأيناه متجسداً ـ للأسف ـ فى سيدات حديثات عريقات النسب.. فشوقى أمير شعراء العربية ونابغة النوابغ والذاب عن هوية الإسلام والمسلمين والعرب خلَّف لنا حفيدة باعت تراثها وجزءاً من تراثنا العربى لأعداء العرب.. إنها إقبال العلايلى.. والحكاية أنه قد (استفاد الجنابى كثيراً من إقبال العلايلى، أو بولا زوجة رائد السريالية فى مصر جورج حنين وحفيدة الشاعر أحمد شوقى. فقد حصل منها على الكثير من الوثائق عن جماعة السريالية فى مصر وعن زوجها وأصدقائه ونشرها. لكن بولا تهورت فى نهاية حياتها بسبب اصابتها المداهمة بالسرطان، فأعطت كل ما تملك وما ورثت من مقتنيات فنية وفكرية عن زوجها إلى يهودى مصرى اسمه برتو فرحى هاجر إلى باريس وعمل فى مجلة الاكسبريس الأسبوعية الفرنسية. ولم تعط شيئاً من هذه الثروة العظيمة التى رأيتها بنفسى فى شقتها فى باريس إلى أى مصرى، حتى ولا إلى أحد من أسرة أبيها أو أمها، أو إلى وزارة الثقافة المصرية. وهنا فى حى الزمالك شقة لجورج حنين علمت أن بها بعضاً من مقتنياته، وقام المركز الثقافى الفرنسى بالقاهرة بشراء مكتبة حنين التى تركها فى هذه الشقة عن طريق كاترين ابنة برتو فرحى نفسه) (٥٦).

فلا شك فى حمق هذا التصرف، لكنه يحتاج إلى تحليل وتفسير.. فإقبال أقبلت عليه وهى مصابة بالسرطان أى أنها واقعة تحت تأثير قوة أكبر منها : المرض.. وربما تمكن اليهودى وابنته من التسلل إليها عبر هذه الثغرة، وسيطرا عليها.. وربما كانت محتويات هذه المكتبة والمقتنيات والوثائق فيها ما يشين جورج ويكشفه لدى أبناء وطنه، ولذا حرصت زوجته على إبعاده تماماً من أى مصرى قد يفجر قنابل بشأن جورج وجماعته وحياته وانتماءاته.. حتى أسرة أبيها أو أمها أبعدت من حساباتها..

ظاهر التصرف هنا إذا كان بريئاً فهو حمق بغير شك، وإذا كانت وراءه تساؤلات وشبهات فهو دهاء وعدم انتماء.

وربما عُرف فى المرأة حمقها واحُتملتْ.. فقد (سمع عمر بن الخطاب رحمه الله أعرابياً يقول : اللهم اغفر لأم أوفى. قال : ومَنْ أم أوفى؟ قال : امرأتى، وإنها لحمقاء مرْغَامَةُ «أى مبغضة لزوجها»، أكول قامَّةُ «أى أكول طماعة»، لا تَبْقى لها خَامَّةُ، غير أنها حسناء فلا تُفْرك، وأمّ غلمان فلا تُتْرك. قالوا : ودفعوا إلى إعرابية علكًا لتمضغه، فلم تفعل، فقيل لها فى ذلك فقالت : ما فيه إلا تعب الأضراس وخيبة الحنَجرة»٥٧.

هذا النموذج من النساء لا يتسم بالحمق فقط، بل بالكسل أيضاً.. فتحريك أضراسها بالمضغ يتعبها، فما بالنا بتحريك يديها وصدرها ورجليها ومؤخرتها؟!!

مغنيـــــات

أم كلثوم: الأصل والصورة

طبقات: مطربات - مغنيات - مؤديات

الموسيقى مؤنثة (٥٩).. مقولة للموسيقى الشاعر فاجنر.. وهى ليست مؤنثة على وجه الإطلاق بل هى امرأة على وجه الخصوص: تعلو بنا إلى سماء الزهد والصوفية والنور الفياض، وترفرف بجناحيها الحريريين بين الهضاب والجبال والذرا والسفوح والمروج، ثم تنحط بنا إلى أسفل سافلين، فتنقلب الجنوب فى الجحيم، وتنشق القلوب ذعراً، وتغيض الدماء فى العروق.

الموسيقى امرأة: تهدهدنا وتلطمنا، تدللنا وتلدغنا، تناجينا وتقرعنا.. تحرك كل كامن النفس من معنى شفاف، ومن شهوة شبقة.

وارتباط الموسيقى بالمرأة لا مبالغة فيه ولا تهويل.. فصوت المرأة أحيانا أنين ربابة، وأحيانا «رزعات» طبول وطسوت!! والأمر لا يرتبط بالمعنى المعبأ فى الكلام.. فصوت الزرزور والكروان بلا معنى يترجم، لكنه يؤثر ويصوغ المشاعر على وتيرته.

ومثلما يقال إن الموسيقى امرأة يقال إن المرأة موسيقى: فيها الشعبية، وفيها العربية الشرقية، وفيها الهندية، والغربية، بالدرجات والمذاهب المتفاوتة لكل منها.. وهنالك امرأة نشاز: ساقاها معوجتان وعيناها متخاصمتان، وشعرها عفريتى - كموسيقى العفاريت!! - ونهداها شمال شرقى إلى جنوب غربى، وعنقها فردة حذاء، ولسانها كلسان زوجتى!!.

هنالك المقطوعة النسائية المنفردة: فى التقسيم والتصميم والإبداع.. فلا يسمعها: يراها الرجل الذواق والرجل السمج أو «التلم» إلا قال سبحان الله!!.

حين تغنى المرأة الموهوبة تمسك الدنيا من أطرافها فلا فكاك للعقل والقلب منها.. صوتها، وصوت الموسيقى، وأسر الأشعار.. وحين تغنى المرأة كلمات تنفث فيها من روحها الضعيف الشكّاء المتألم الطامح، فكأنها تغنى لنفسها ومواجعها فقط، فإذا بها تغنى للناس أجمعين.

استـأثرت المرأة بالغناء ما ارتقى منه ومـا تدنى، وما خف وما ثقل، ومـا رق وما اخشـوشن.. أما تسـرب أصوات رجالـية فى أزمنة متـفاوتة إلى فن الغنـاء فعلى سبـيل الاستـثناء المؤكد للـقاعدة.. فـإبراهيم وإسحق المـوصلى ومعـبد وزرياب وإبراهيم بن المهدى والـشيخ المسلوب وعبـده الحامولى وسـيد درويش ومحـمد عبدالوهاب وعبدالغنى السيد وعبـدالحليم حافظ وصباح فخرى وناظم الغزالى.. على امتداد ألف وخـمسمائة عـام، ولو «ضربناهم» فى اثنين أو أربع لا يمكن أن يغطوا كل خـريطة الغناء العربى. والسـمة الكبرى لأكـثرهم أنهم ليـسوا مـغنيين فقط، بل علمـاء فى فنون الغناء والموسيـقى.. ويقومـون مقام الأسـتاذ من المرأة.. والسمة الأخـرى لهم ولكل مغنٍ أنه ينبغ ويعلو فى الطرب بقدر أخذ طبـيعة من الطبائع النسـائية!! كلما اقتـرب صوته من الأنوثة علا فى الأداء والتأثيـر، وكلما استرجل الصوت بعد عن الغناء والنغم.

من يسـتطلع حـيـاة هؤلاء المطربين النوابـغ رآها أقرب إلـى حيـاة النسـاء رقـة وعاطفة.. قد تكون الرقة فيهم طبعاً فيـتسقون مع الموسيقى والغناء، وقد يتطبعون بطباع الموسيقى وترق حواشيـهم ويتخنث تكوينهم النفسى.. والتخنث هذا خيط طويل يمـتـد من مـغن لمغن ومن زمن لزمن، حـتى لم يـبق منه فى زمـاننا فن ولا إبداع بل تخنث مطلق فيمن نراهم الآن من المتسمين فى هذا الفن.. إنهم يضعون المكيـاج على وجـوههم كـالنسـاء السـافـرات تمامـاً، ويتـفننون فى هز أردافـهم «المبقلزة»!! وفى الـتلوى كأبرع الراقصـات.. وليس جديداً ولا غـريب أن نسمع كل يوم عن شائعة شذوذ أحدهم، وأنه يبيع عرضه لفلان من الأثرياء الشواذ كما تبيع النساء!!.

هذا هو الجـانب المنبوذ من رقـة الموسيـقى والموسيـقيـين.. ولم يأخذ مـغنو هذا الزمن ممن يسـمون أنفسهم مغنـيين شبـاباً إلا به.. لأنهم يفـتقدون عناصـر الفن

الأخرى.. أمـا الأسلاف فكانوا يصنعون لـكل شيئـاً حداً.. ولم يتخنثـوا إلى حد الانبطاح على الوجوه والبطون!!، بل رقت طباعهم كالـنسيم وكالجداول خاصة وهم يسبحون مع الشجو والشدو والتغريد فتنتقل حالتهم إلى من يسمع ويرى.

الرقة فى هؤلاء الأسـلاف كانوا نوعـاً من التصوف والسـمو.. وليس غـريباً أن نرى بعضهم يعمل بالفقه والشـريعة وقراءة القرآن الكريم ويحمل لقب الشيخ.. والرصد الموضـوعى المحايد لدور المرأة فى الغناء لابد أن يضع المجتمـع وطقوسه حول المرأة فى الحسبـان.. فلم يكن أمامها، وربما حتى هذا الزمن، فرصـة متعادلة مع الرجل للإعراب عن موهبتها وقدراتها.

كانت الحرائر ممنوعات من هذا الفن إلا نادراً ندرة عليـة بنت المهدى، أو يقتصر غناؤهن على حجراتهن المغلقـة.. أما الإماء فهن للتسرية والتـرفيه عن سادتهن.. وعلى الرغم من كل هذه الحياة المغلقة السرية فـقد نبغت منهن الكثيرات على مر العصور منذ الأمويين والعباسيين حتى هذا الزمن.

فى فجر الغناء العربى، يضىء نجم علية بنت المهدى كأشهر مغنية حرة، وأميرة، وابنة خليفة، وأخت خلفاء، ورغم شرف الوراثة هذه فإن عرق الإماء تسلل إليها من أمها، وكأن الغناء حينذاك حق محتكر للإماء وأبنائهن وبناتهن فقط.. والإماء رغم رفقة الأسر كن أحـيانا من أسر ملكية عريقة، وينتمين لحـضارات كبرى فى فارس والهند والصين والروم.

وقد (غنى إبراهيم بن المهـدى فى مجالس أخيـه الرشيد ومجالس أبـناء الرشيد الخلفاء الثلاثة: الأمـين والمأمون والمعتصم، ومجالس كبـراء بنى هاشم، ومجالس المغنيين المحترفين، وألف كتبا ورسائل فى الغناء.. وكانت أخته علية بنت المهدى لا تقل عنه شهـرة وتقدمـا فى الغناء، ولها عشـرات الألحان، وأمهـا جارية مـغنية اسمـها «مكنونة» اشـتراها المهـدى بمائة ألف درهم، وقد تعلمت عليـة الغناء من

أمها، ثم تبحرت فيه علـى أيدى إبراهيم الموصلى وابنه إسحاق وأخيها إبراهيم.. ولم يكن الرشـيد فى بداية اشـتغـالها بالغناء يعلم شـيئـا عنها فلمـا علم لم ينكر أمرها، بل أبدى السرور به، وقام إليـها فقبل رأسها وقال لها معـاتبا «يا سيدتى.. هذا - الفن - عندك ولا أعلم» (٦٠).

لم يكن الغناء - إذن - محقـرا، بل يرفع سعر مغنية مـثل «مكنونة» أم علية إلى مائة ألف درهم.. ويجعل «علية» سيدة خليفة المسلمين هارون الرشيد.. لأن الفن حينها لم يكن قـد وصل إلى ملاهى شارع الهرم بعدا! كـان علما وأدبا وتاريخا وثقافة تدعم الموهبة الربانية وتؤكدها.. ولم يمر علينا أن مغنيا أو مغنية كانت أمية أو جـاهلة أو عاجـزة عن قـراءة الشعـر الفصـيح فـتضـفى عليـه فصـاحة وبيـانا وإعجازا.. ولم تكن أم كلثوم - سيدة الغناء الـعربى بغير منازع - بعيدة عن هذا الفهم لقـيمـة الغناء وسحره وأعـبائه أيضـاً.. حتى تداول الناس أنهـا تحفظ ثلاثة آلاف بيت من الشعر، وتستطيع أن تنتقى من القصـيدة أرقاها وأعذبها لتغنيه، بل وتضيف إليه بعض المفردات وتحذف بعضا، مما يزيدها رونقاً وبساطة مع عمقها.

وغيـر الأميـرة علية (كانت جـميع الموسـيقيـات سواء المغنيـات أو المشتـغلات بالآلات أو الملحنات من الجوارى.. وكان للموسيقى شأن كبير فى قيمة الجوارى القيـان، وكانت القينة التى تمتـاز بالموهبة الموسيقـية يرتفع ثمنها فى سـوق الرقيق قدراً كبيراً، وعلى قدر السرور واللذة التى كانت تستطيع هذه أن تحدثهما لسيدها يكون مقدار احترامه وحسن معاملته لها، وقد كان لتلك القيان فى بعض الأحيان أثمان باهظة، فـابن غانم باع قينتـه زبيدة بمائة ألف درهم وسـلاّمة بيعت بثـمانين ألف درهم، وكانت القيان تقدم كالهدايا وتدخل فى الميراث والصداق) (٦١).

ولم يكن الغناء قائماً على التربح فى كل حـالاته.. فهل كان إبراهيم بن المهدى وعلية أخته يحـتاجان إلى ثمن؟! هما يغنيان لأنفسـهما وأصدقائهمـا وإخوتهما

وكبار أقاربهما بدون ثمن.. وعلى الرغم من ذلك يعدان العدة لهذا الفن ويجتهدان لتحصيل أوائله وأواخره.. ولم تكن القينة المغنية تنال أجراً، تغنى، لأنها وما تملك من مواهب ملك سيدها.. وعلى الرغم من ذلك تعد للفن عدته، وتسعى للإلمام به من أطرافه.. هى لا تنال ثمن غنائها، لكنها تحس بقيمتها المادية التى تعنى قيمة معنوية أيضاً.. فبثمن القينة المغنية: مائة ألف أو أكثر أو أقل، يستطيع الرجل أن يتزوج حرة وحرتين وثلاث حرائر، ممن لا تؤثر فى نفسه وعقله تأثير القينة المغنية.. وانظر مثلا إلى أثر «دنانير» وسلطانها على النفوس.. (كانت دنانير مولاة يحيى بن خالد البرمكى، وكانت مولدة من الفرس ومن أحسن الناس وجها وأظرفهن وأكملهن وأحسنهن أدباً وأكثرهن رواية للشعر والغناء، وكان الرشيد لشغفه بها يكثر من زيارته لها وجلوسه عندها حتى شكته زبيدة إلى أهله وعمومته فعاتبوه على ذلك، ولها كتاب مجرد فى الأغانى ذاع صيته، أما عريب فقد كانت من كبار الموسيقيات ومن أحسن المغنيات، وكان اسحق يقول إنه لم ير أجمل ولا أمهر ضاربة بالعود منها، وكانت تعرف واحداً وعشرين ألف لحن وخمسمائة، وقد كانت أولاً محظية المأمون وموضوع شغفه حتى سميت بمأمونية، ثم انتقلت إلى الخليفة محمد الأمين وأصبحت محظيته، وقد جمع غناؤها من ديوانى ابن المعتز، أما «بذل» المغنية فكانت قينة قصر الهادى، وكانت حلوة طويلة القامة وذات صوت جميل، ويقال إنها كانت تروى ثلاثين ألف صوت وأنها جمعت فى مجموعة لها اثنى عشر ألف صوت، ويقال إنها كانت عند إبراهيم المهدى فغنت فى طريقة واحدة وإيقاع واحد مائة صوت لا يعرفها أحد) (٦٢).

هكذا يتوقف الرواة على علم هؤلاء المغنيات وتبحرهن فى الفن قبل أن يشيروا إلى أشكالهن الجميلة وأجسامهن الفارعة، وربما لا يشير أحد إلى أى من الملامح الشكلية لهؤلاء الخالدات.. فالشكل لا يخلد أحداً.

ولأسباب كثيرة قد لا يمكن حصرها غرق الغناء العربى فى الصمت وربما الضياع زمناً طويلاً - عدة قرون - أو قصفت أقلام المؤرخين هذه القرون فلم يذكروا عنه ازدهارا ولا نموا.. انحدر الغناء انحدار الشعر فى نهايات العصور الوسطى حتى أيقظه - الشاعر - محمود سامى البارودى.

انحدار الغناء، واختفاء التاريخ له قد يعود لانحدار الخلافة الإسلامية إلى التفتت السياسى فى شكل دويلات متصارعة، ثم سيطرت اللكنات غير العربية من أواسط آسيا على مقاليد الحكم فى هذه الدويلات وفى بغداد نفسها مقر الخلافة العباسية، ثم الموجات الوحشية المتتالية التى قصدت ديار الإسلام لتخريبها وإفناء المسلمين من هذا العالم.. هجم علينا التتار والصليبيون.. فانصرفت كل الجهود للدفاع عن النفس فيما بقى من إمارات إسلامية.. لقد سقطت الواق معقل الخلافة، وسقطت بلاد الشام بكل ازدهارها ورفاهيتها، وبلاد المغرب لم تكن مؤثرة وكانت تحاول احتواء المسلمين الفارين من الأندلس بعد سقوطها.. ولم تبق إلا مصر تقاوم الأعداء من كل جنس، وتحاول أن تضمد جراح المسلمين وتنفخ فيهم من روحها، وفى هذا الجو القاسى انصرفت الجهود كلها عن الفلسفة والأدب والغناء والموسيقى والعلوم إلى الدفاع عن البقاء والهوية وصد الغزاة.. ورغم النجاح الحاسم لتحقيق هذا الغرض، فإن ذيول الصراع ونتائجه تركت الوطن الإسلامى وخاصة فى المناطق العربية كياناً مفككاً مريضاً متضعضعاً، يلتقط أنفاسه بصعوبة بعد انتهاء الصراع.. ليجد العرب أنفسهم فى حلقة جديدة من الانهيار أو التراجع، بسقوطهم فى يد العثمانيين.. هم مسلمون فعلاً، لكن ثقافتهم غير عربية، ولسانهم تركى، وطبائعهم غير عربية.

الجو العام إذن لم يكن مذهلاً لتلقى مواهب غنائية عظمى فى قامة دنانير

ومكنونة وعلية.. تستطيع أن تلم من العلم بطرف ومن الأدب ببعضه ومن الفنون بقبس لترقى بنفسها، وتعتقل صوتها ومواهبها.. فهل اختفى الغناء تماماً طوال هذه القرون؟!.

هذا تساؤل إجابته غير مجهدة.. الغناء لم يختف ولن يختفى، وجد بشر وما نطق صوت.. لكن أنماطه قد تتغير، ومستواه قد يتدنى، ومن يتوجه إليهم من الناس ليسوا ناس من العلم والأدب والثقافة، ومن يحترفونه ليسوا علماءه وأساطينه ونجومه.

نتحدث عن الغناء كاحتراف أو تفرغ، لا عن الفلاح الذى يقود بقراته بالغناء وهى تحرث الأرض، ولا الجمال الذى يحدو إبله، ولا العاشق الجالس تحت صفصافة بطرق ترعة فى قيظ الصيف يشدو للحبيب البعيد، والألم العميق، والحلم الغارب.. ولا نتحدث عن أغانى الأفراح ولمة العيال حول الفتيات والنسوة الشاديات للعروس والعريس ولا عن ترانيم الآباء فى الكنائس.. حديثنا عن الغناء المتفرغ له، ومن احترفنه من النسوة.. وهذا هو ما نحكم عليه بالانهيار طوال تلك القرون أو على الأقل الضعف والركاكة.

ومع بداية إحساس الشخصية العربية المصرية بذاتها فى القرن التاسع عشر، ومثلما حدث فى الشعر.. بدأت محاولات الإحياء للغناء العربى، والعودة إلى أصوله العلمية العربية.. وبدأ كذلك الرصد لمرحلة الانتقال من غناء الغنج والابتذال إلى الاختيار والانتقاء والاجتهاد والتطوير، سواء من خلال المغنيين الرجال أو المغنيات النساء.. فبعد (الشيخ شهاب كان أبرز علماء الغناء الشيخ محمد المسلوب الذى كان ملحناً قديراً ومغنياً شهيراً، ثم شيخاً على «أرباب المغانى» أى المغنيين الرجال، أما المغنيات النساء، فكن خارج شياخته هذه، لأن معظمهن كن من الجوارى والراقصات، وكان لطائفة منهن أوضاع اجتماعية

متدنية، إذ كن معدودات ضمن نزيلات الملاهى والأماكن ذات السمعة السيئة فى حى الأزبكية، ولبثن كذلك إلى أن هجرت منيرة المهدية فى أوائل القرن العشرين مكانها فى ملاهى الأزبكية، وتحولت إلى مسارح الشوارع الحديثة فى القاهرة، كشارع عمادالدين الذى رفع الخديو عباس حلمى الثانى من شأنه حين بنى فيه عماراته الشاهقة فى مطلع هذا القرن، ومازالت هذه العمارات تسمى حتى يومنا هذا «عمارات الخديو».. وإلى عهد الشيخ المسلوب كان المغنون يسمون «دواخل مصر» وهو لقب يطلق على مشاهير المغنيين والمغنيات، وكانوا يتناقلون فيما بينهم قول الشيخة «زعزوعة» الزجالة المصرية القديمة التى قالت عن «الدواخل» زجلها المشهور:

دواخل مصر فى قاعة	حداهم بنت جنكية
وزعزوعة ترقصهم	على شامى وشامية

ولهذا اللقب أصل قديم، ففى كتاب «شفاء الغليل» وهو من كتب التراث القديمة يقول صاحبه: «المحدثون يسمون حسن الصوت دخولا، ويسمون ضده خروجا - أى لخروجه ونشازه عن اللحن والإيقاع.. ثم قالوا: داخل، ودواخل، وأطلقوها على المغنين» (٦٣).

وإذ أخذنا بهذه المقولة فإن منيرة المهدية تعد الحد الفاصل بين غناء الراقصات والجوارى ونزيلات الملاهى، أى الغناء الهابط العشوائى، وبين الغناء كفن قائم على أسس وقواعد.. بعد أن انتقلت من ملاهى الأزبكية إلى مسارح عمادالدين.. والانتقال ليس مكانيا فقط، بل انتقال فى بيئة الغناء، ومستمعيه، والمشتغلين به.. ففى المسرح فرق مدربة، وعروض فنية درامية، وجمهور راق قد يبدأ من الخديو نفسه، ثم طبقات الأمراء والإقطاعيين والمثقفين والمتعلمين.

على أن منيرة المهدية ليست مالكة ساحة الغناء وحدها حينذاك، فإذا (عرضت

أسماء المغنيات اللاتى اشتهرن فى ذلك العصر، وجدت كثيرات أمثال: ساكنة وألمظ واللواندية وتودد وهانم المصرية ومنتهى الوحيدة وسمحة المصرية وأمينة القبانية ونرجس المهدية وتوحيدة والسويسية ونعيمة المصرية ومنيرة المهدية وغيرهن.. هؤلاء جميعا لم يحفظ لهن التاريخ إلا بضع اسطوانات سجلن عليها أدواراً أو قصائد، ولا أعرف - وقد يعرف غيرى - أن إحداهن سجلت موشحاً قديماً أو جديداً!) (٦٤).

ويبدو لى أن هذه الأسماء ليست أسماءهن الحقيقية، بل أسماء شهرة، اخترنها لاستنكار الأسماء الأولى، وربما كانت من قبيل فتكات، وهنومة، وعديلة، ومكاسب، وأم السعد، وست أبوهم، ولواحظ.. مثلا!! وبعض هؤلاء ربما كن هاربات من أهلهن وتخفين ليمارسن الفن هذا، وقد كان حينها منبوذاً من العائلات دائماً، ومازال حتى هذه اللحظة أحيانا!!.

ويلاحظ كذلك اقتران أكثرهن بصفة: المصرية المهدية، السويسية، الوحيدة، القبانية.. والنسب إلى مدينة أو منطقة معروف.. فالسويسية من السويس - ربما أصلاً وربما ولاءً - والمصرية يقصد بها القاهرة، والمهدية - كالمهدى - تطلق أحياناً على من يدين بغير الإسلام ثم يسلم.. أو يعيش حياة الفجور والتحلل ثم يثوب إلى الصواب.. وصفة «الوحيدة» التى تلتصق «بمنتهى» ربما يقصد بها أنها بلا مثل ولا ند فى الغناء وغيره.. و«القبانية» عائلة ويقال للمنتمى إليها من الرجال «القباني».. وقد تكون اللواندية منتمية لأصل إفريقى «لواندا».. وكل هذه «التقاليع» فى النهاية لم تخلدهن فى موقع سامٍ باستثناء «ألمظ» لارتباطها بعبده الحامولى، وبعض الأحداث السياسية وقصر الخديو فى ذلك الزمان.. ثم منيرة المهدية صاحبة النقلة فى تاريخ الغناء العربى الحديث.. وكأنها كانت توطئة وتمهيداً، وتبعيداً لطريق سوف يسلكه فيما بعد أعظم صوت نسائى عربى: أم

كلثوم.

وربما ظلم هؤلاء النسوة المغنيات تقدم زمنهن عـدة سنوات على اختراع وسائل التسـجيل الحـديثة، وعدم تمكن بعـضهن من اللحـاق بها، أو إدراك أخـريات لها وهن فى النزع الأخير من حياتهن الغنائية.

أم كلثوم.. الأصل والصورة

النساء كـالنيران، يأكل بعضهـا بعضاً.. فإذا اقتـرنت الأنوثة بالشهرة والعـبقرية والمال والنفوذ فقل ما تشاء، فتخيل مـا تشاء من طبيعة هذا الصدام: صدام الجبال بالجبال.

ومن قلب النيـران تبـرز الجوهرة الأصـيلة، وقـد خلَّفت المعركـة حـولها رمـاداً وصمـتاً.. ومن قبل أم كلثوم جـرت ملحمة كـبرى بين ساكنة وألمظ، معـركة من أجل البقـاء، و(فى الوقت الذى بلغت فـيه «ساكنة» الذروة، أخـذ نجم ألمظ يلمع شيئاً فشيئاً حتى استحال قمراً منيراً فى سماء الفن، وأصبحت ألمظ خطراً مستطيراً يهدد مجد ساكنة بالأقوال، ففكرت فى حـيلة تمنع منافستها فى ميدان الفن، وهى أن تضـمهـا إلى فـرقتـها حـتى تكون تابعـة لهـا، وحتى تعـمل تحت إشـرافهـا.. واستطاعت بهذه الطريقـة أن تضع الفأر فى المصيدة، وتطغى عليهـا فى الحفلات التى تقدمها، والبرامج التى تعدها، وتجعل لنفـسها قصب السبق فى هذا المضمار، ولكن المعـدن النفـيس لابد أن يظهر ولو بـعد حـين، ولابد للجـوهرة الغاليـة أن تلتمع مهما طمسها التـراب، فارتفع نجم «ألمظ» وتنبه الناس إلى مواهبها العظيمة وصوتها الحنون، وسـرعان ما تألق نجمـها مرة أخرى، واستنارت بـضوئه جنبات سـماء الفـن، وهنا حقـدت عليـهـا «ساكنة» وظـهر أثر حـقـدها واضحـاً جليـاً فاضطرت ألمظ إلى تركهـا والاستقلال بفرقة خـاصة، تضارب بها فرقة أسـتاذتها السابقة، ولم تلبث أن ازدهر مجدها وخبا نجم ساكنة وقضى عليها قضاء مبرماً..

ويقول الرواة إن صوت «ألمظ» كـان حديث المجتمع العربى جمـيعا، وكان الناس يحضرون من كل فج عميق للإصغاء إلى صوتها الرخيم) (٦٥).

هذه واقعة نسائية فى زمن سابق على إطلالة أم كلثوم بعدة عقود، وقبلها كانت تحـدث هذه الوقائع وبـعدها كـانت تحـدث.. وأفول نجم واحـدة لا يعنى تهـافت موهبتها، بل يعنى أن الزمن قد وقف ضـدها، وقد راح يجردها مما منحها الله من نبوغ، وينسج حول أحبالها الصوتية صدأ بدلاً من رنين النشوة.

القديم يحاول منع الجـديد ووأده، وينتصر دائماً الجـديد على القديم الذى كان بدوره جديداً يوما ما أو سنة ما.

أو ليس من الممكن اتساع الأفق - بكل امتـداده - لصوتين نسائيين؟! يمكن.. إذا كانا صوتين موهوبين فقط.. فـفى كل زمن مغنيات بعدد أصابع الأرجل على الأقل!! لكن الأصوات العبقيرة المنفلتة نادرة جداً.. قد يمر قرن كامل من الزمان حتى يشهد ميلاد أحدها.. وهذا هو شأن ألمظ، وشأن أم كلثوم.. وكأن هناك اتفاقاً سرياً وقّع عليـه الجمهـور جميـعا!! يقضى بتـخلص أحد الصـوتين من الآخر.. فحين ماتت أسـمهان - التى تلى أم كلثوم مباشـرة فى الصوت وهذا يكفى دليلاً على عبقريتها - قيل إن أم كلثوم قتلتها حتى تبقى وحدها فى الساحة!!.

حول أم كلثوم - النجم السـاطع - تناثرت كواكب وكويكبات كـحبات الماس الصغيرة.. التى رضيت بعضها بموقعها من الفن والناس، وبعضها رفضت واقعها وإمكاناتها وأخذت تنـازع أم كلثوم عبقريتـها ومجدها الذى شمخ سـريعاً بمجرد انتقالها من طماى الزهايرة إلى القاهرة، لتبدأ معركة صعبة وطريفة أيضاً وتختلف عن معركـة ساكنة وألمظ.. فقد (صارت «أم كـلثوم» من أشهر الأسمـاء فى مصر والعالم العربى خـلال سنوات قلائل، وتقافزت حولها خـلال العشرينات وأوائل الثلاثينيـات مغنيات كثـيرات يحسدنهـا على نجاحهـا العظيم! وأطلقت إحداهن

على نفسها اسم «أم كلثوم».. ونزلت إلى ميدان الغناء متحدية أم كلثوم الحقيقية التى لم تجد بدأ من توزيع إعلانات باليد - نشرتها الصحف بعد ذلك - تقول فيها ما معناه: أنا وحدى أم كلثوم «الأصلية»، أنا أم كلثوم إبراهيم البلتاجى، وأما أمهات كلثوم الأخريات فإنهن أمهات كلثوم زائفات لا يعترف «كلثوم» بأمومتهن فى فن الغناء!.. تلك كانت أول معركة لأم كلثوم ضد أمهات كلثوم اللاتى أردن أن يشاركنها مجدها أو ينتزعنه منها وهى فى بداية طريقها الفنى! و«الكلثوم» فى بعض معانيه اللغوية هو الراية الحريرية، يرفعها الجندى فوق رأسه.. فلا غرو أن كانت أم كلثوم ومازالت راية الحرير الخفاقة) (٦٦).

واجتازت أم كلثوم معركتها الأولى والغريبة، وحتى لو صمتت لاجتازتها بالصمت وبدون إعلانات توزع باليد أو فى الصحف.. ولو غيرت اسمها إلى رضوى أو سلوى أو فدوى لبقيت فى القمة أيضاً.. فليس النجاح فى الاسم بل فيما يحمله من إبداع وقدرات خارقة.. وإن كان عنصراً مساعداً لأغلب أصحاب المواهب.. والمؤشر الطريف هنا أن أم كلثوم لخصت فن الغناء فى شخصها واسمها فى خلال سنوات قلائل من بدايتها.. فكأن لفظة الغناء صارت مرادفة للفظة «أم كلثوم» ولذا تكالبت المغنيات على «اقتناء» هذا الاسم السحرى!!.

تحولت «الست» إلى ظاهرة فنية وسياسية ووطنية أيضا منذ العقود الأولى من القرن العشرين.. ففى (ليلة الخميس الأول من كل شهر كان مسرح الأزبكية بميدان العتبة الخضراء فى القاهرة يوضع تحت حراسة الشرطة المصرية، حتى تستطيع أم كلثوم أن تغنى فيه وهى آمنة مع جمهورها من اقتحام جنود الإمبراطورية - أى الإنجليزية - للمسرح!! فإذا انتهت أم كلثوم من الغناء فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، عادت إلى بيتها فى الزمالك تحت حراسة كثيفة من الشرطة المصرية تخترق بها «شارع فؤاد» الذى كان من أشد شوارع

القاهرة ازدحاماً بالجنود السكارى) (٦٧).

ما الذى تملكه أم كلثوم من سحر؟! لا تملك السحر كله، بل بعضه: ما يبقى منه ويخلد فى يقظة العقل وفى خدره، فلا يزول أثره، ولا يتوهمه المستمع أو المشاهد.. هو سحر الحقيقة والفطرة والانتماء والجذور الأولى للبشرية وللوطن.

تخلو أم كلثوم من سحر الأنوثة، فهى من الجمال فى الوسط، ويصعب أن نقول إنها جميلة بالمقاييس المعهودة.. لكن فيها ما هو فوق الجمال.. فربما وقع فى روع من لا يعرفها ولا يسمعها، إذا رآها شىء من الهيبة والتجلة، وأحس فيها شموخاً وعزة كأنها ملكة قهرها الزمن واستل عرشها!!.

ومن يعرفها ويراها لا يستطيع أن يحبها كامرأة، سيحبها «كائنا» عاليا، وإنساناً وعالماً ووطناً وطفولة وتواضعاً ودعابة.. فمكوناتها الأولى تشكلت من مكونات الوطن نفسه: الحشائش، والشجر، والترع، والظلال، وسطوع الشمس، وجلاء القمر، واتساع الأفق، واحتضان السماء للأرض فى احتواء كامل.

هذه البراءة الأولى صاغت شخصيتها الريفية وحددت مسارها مع تربية دينية فنية فى أحضان القرآن وأحضان الأعراف والعادات والموروث من أفراح ومآتم وموالد وليال وحلقات ذكر.. فلم يكن على الموهبة الموروثة إلا أن تجلو وتعلو وتنفجر نهراً من النور، عم القرى والمدن ثم العاصمة، ثم أرض العرب أجمعين، ثم أضحت ظاهرة فى الطرب لا مثيل لها فى العالم كله.

عناصر السحر الكلثومى تكمن إذن ابتداءً فى الوراثة والتربية والبيئة.. وهى عناصر تشاركها إياها - أيامها وأيامنا هذه - عشرات من الفتيات الريفيات لكن اكتشاف هذه القدرات وتوجيهها ورعايتها وصقلها ثم التخطيط لاستمرارها بذكاء وحكمة هو الحلقات المفقودة التى لم تتصل لتقدم لنا أمثالها فيما بعد، وحتى الآن.

الغناء كـان عيبـاً لدى الآباء، وليس كل أب هو الشـيخ البلتـاجى الفنان الذى يتقوت من الغناء ويدرك مسالكه.. ولو وجد الأب ما وجدت مدرسة القرآن التى تتربى فيهـا الموهبة حـفظاً مضبطاً لمخـارج الحروف والجـهاز الصوتـى ثم تجويداً وتلاوة.. ولو كان هذا وذاك ما أخذت الموهبة نفـسها بالجد والدأب لتحفظ آلاف من أبيـات الشعـر وتسمع القـصص وتعيش حـياة الأدباء والمفكرين والمؤرخـين والملحنين.

ومن أين الذكـاء الذى «يطبخ» كل هذا فـى سيـاقـه الاجـتمـاعى والسـيـاسى والإنسـانى والإعـلامى ليـجتـاز كل قـيـد وحد إلى قلـوب الجمـاهيـر، من زمن الاستعمار والملكية إلى زمن الثورة والجمهورية إلى زمن الانقلاب على الثورة فى السـبيـعـينيـات؟!، مَن من العقـول يدرى أن دوره التـاريخى والوطنى والقـومى والثـقافى يتـجاوز التـرفـيه عن الحكام وحـتى العـامة إلى بناء وجـدانات هؤلاء، وإشعال حـماسهم، وتأكيد قـيم العدالة والحرية والكرامة الذاتيـة.. ويتجاوز هذا وذاك إلى المشاركة فـى بناء الوطن بالكلمة والمال والدعاية والتجـوال بين المغرب والمشرق وأوروبا فيصبح مصدراً من مصادر الدخل القومى؟!.

أم كلثوم وحـدها تفعل هذا، فى وقت كـان عبدالوهاب يزيـد عدد أسطوله من «سيارات التـاكسى» العاملة بالقاهرة!! وإن كان هذا لم يقلل من عظمـته الفنية.. لكنه لم يجـعل منه «كوكب الشرق». أو «نجم الشـرق» ولا «سيد الـغناء العربى» ولا «السيد» ولا يجعل من التعرض له والهجوم عليه جريمة وطنية!!.

وأكثـر الحلقات المفـقودة اتساعـاً، هى انعدام آلية اكـتشاف العبـاقـرة وتدريبهم وصقلهم.. فساحة الفن الآن مفـتوحة الأرجل لكل من يدخل من عديمى الموهبة والجاهلين مادامموا يملأون الأفواه والجيوب بالأموال: صرة لملحن مشهور، وصرة لكاتب أغانى معروف، وصرة لمسئول فى التليفزيون، وصرة لبعض محررى الفن

فى بعض الصحف.. ولا عيب فى صرة لبعض مسئولى المؤسسات النقابية والتعليمية الموسيقية، فإذا بالحمار والأتان مطرب كبير، وإذا بفن الغناء كله نقيق ضفادع، وفحيح أفاعٍ. ونهيق حمير.

فن الغناء الآن شخلعة وردح ولطم وتخنث رجال واسترجال نساء.. طوال ربع قرن سيطر شواذ الطبع والأخلاق وعديمو الموهبة على كل منفذ ينقل صوتاً أو لحناً أو كلمة إلى مستمع.. بعد أن خبا ضوء سيدة الغناء العربى برحيلها، وانطفاء مطربين آخرين كعبدالوهاب وفريد الأطرش ونجاة على وعبدالحليم حافظ ومحمد فوزى وعبدالغنى السيد ومحمد عبدالمطلب وليلى مراد.. وصمتت أو كادت نجاة الصغيرة وسعاد محمد ونجاح سلام.. بينما آثرت فيروز الرائعة ووديع الصافى وصباح فخرى الانزواء فى أقطارهم التى نحبها، لكنها بعيدة عنا للأسف، أى بعيدة عن معقل السماع والجمهور الأكبر فى مصر.

بدأ الوقوع فى هذه الهاوية المسماة بـ «الغناء الشبابى»، وهو ليس غناء ولا طرباً ولا شبابياً ولا ينتمى لفن،.. بدأت الهاوية وفتحت شدقها منذ بداية السبعينيات التى شهدت آثار نكسة يوليو ٦٧ ثم نكسة السياسة والأمل العربى بوفاة عبدالناصر، ثم كسر دفة التوجه القومى ليتوه الوطن المصرى ومعه العرب أجمعين فى المحيط الأطلنطى الأمريكى، وفى هاوية الاقتصاد التابع، وفى هاوية التحلل الاجتماعى وانتشار أمراض المجتمع كالمخدرات، والعنوسة، والطلاق، والبطالة، والرشوة، والمحسوبية، وتردى التعليم، وغسيل المخ الإعلامى.

الجو مهد تماماً لانهيار الغناء والطرب بصفته معبراً عن ذوق الشعب وتوجهاته وقدراته وأحلامه فطلبت البوادر فى السبعينيات بظهور «جعورة» واحد اسمه «عدوية»!!.

وكانت محل سخرية واستخفاف، وبعد ظاهرة «الجعورة» هذه بحوالى ربع

قرن بدأ الناس ينظرون إليها علـى أنها أرحم مما هو كائن!! وإن الشرخ الأول فى الذائقة الصحيـحة.. واتسع الشرخ مع كل هذا الانهيار الاجتمـاعى والاقتصادى لتصبح الأغنيـة مثل الكنتـاكى والبيـتزا، وكل «القـمامة» الأمـريكية التـى تصدر للعالم!!.

الأغانى الآن «موديلات» وسرقات متبـادلة للكلام والموسيقى والحركة، وحشد من العـرى الأبيض وتلوى الدواعـر على المسارح، وشىء من الأضـواء والأزياء يهب فجأة عليك من الشاشـة الصغيرة كهبوب السمـوم يوماً وشهراً وربما سنة.. ثم يتم استـهلاكه وهضـمه فى الذائقة الفـاسدة، وإخراجـه فى دورات المياه!! أو خلعه كـالحذاء المهتـرىء.. لتهجم علينا من كل باب وشـباك أغنية أخـرى ووجه آخر.. وهكذا الدوامة لا تنتهى بعد أن بدأت فى السبعينيات.

آلية الاكـتشاف والصقل والتبنى إذن لم تعد كما كـانت أيام أم كلثوم، التى لا يمكن أن تخلو مـصر من مـثيـلاتهـا فى أى زمن.. لكن عناصر سـحر «كـوكب الشرق» فيها حلقات ضائعة ولا يستطيع فرد واحد تعويضها.. وربما تستمر دورة السقوط هـذه التى نعانيها حـالياً عقداً آخر أو عـقوداً.. لكنها لا يمكن أن تسـتمر للأبد.. ففترات سقوط الوطن فى كل المجـالات يصحبها سقوط الفن.. ولا شك فى أن النهوض آتٍ يوماً ما، أو سنة ما.

طبقـــــات

مطربات.مغنيات.مؤديات

الطرب غير الغناء غير الأداء.. الفارق بين الطرب والغناء لا يرسمه اللحن أو الكلمة، بل الصوت.. وليس غريبا عن أسماعنا عن المطربون الشعبيون المجهولون فى الموالد.. وكنا نشهد واحداً منهم فى قريتنا ـ العجميين ـ بالفيوم يصدح بكلمة واحدة: ياليل ياعين عشرات المرات والناس تهيج له ولها طرباً.. على الرغم من أن الكلمة مستهلكة وقديمة.. إنه يضفى عليها من روحه فإذا بها تزهو وتتوهج، ويترجم طرب الناس بها إلى «نقوط» من الأوراق المالية الصحيحة!!

يا ليل يا عين نفسها يؤديها آخر، فلا يهرب منه البشر وحدهم، بل الحشرات أيضا.. وبعض الأمثال تحضرنا جميعا.. فقد غنى الشيخ سيد مكاوى بعض ألحانه (ياليل طوّل شوية) وغيره، فاهتز الناس له ورقصت مشاعرهم معه.. وغنى الألحان نفسها أمثال محمد ثروت فدفنوها فى بئر عميقة من الظلام الصوتى، وجردوها من كل أثر فى النفوس على الرغم من قوة أصوات بعض هؤلاء المغنيين..

أقوياء الأصوات هؤلاء يتفوقون فى «جعيرهم» على عبدالحليم حافظ، لكنهم إلى جانبه كالرياح العاصفة التى تقلع الزرع وتفسد الحياة، وهو كالنسيم العليل تحت ظل شجرة جزورين بجوار ترعة فى ليلة صيف.. والفساد تسلل إلى بعض أغانى الراحل العظيم محمد عبدالوهاب حينما أداها صاحب جعورة من شباب هذا الزمان!! فكتم نفس الكلمة واللحن والمعنى والروح..

وكون الطرب يأخذ النفوس من أطرافها، ويتغلغل مع الدم فى العروق، فإذا أنت تبسم مع الفرح، وتدمع مع الحزن، وتشك مع الحبيب الشاك، وتأسى للعاشق المظلوم والمصدوم والمخلص.. فكأنك أنت صاحب الحالة والموقف فى كل موقف.. كون الطرب هكذا لا يعفى المطرب من الأختيار والإنتماء للكلمة واللحن.. وما خلدت الأصوات العظمى كلها فى كتب التراث كالأغانى لأبى

فرج الأصفهانى إلا لتحقق الاختيار والإنتقاء لما يغنى المطرب، فلا يكتفى بقدراته الصوتية الحنون العميقة الطرية الرقراقة.. وربما هبط بمطربة أو مطرب عدم الانتقاء والاختيار هذا..

القرآن الكريم نفسه ــ كتاب الله المنزل ــ ينتقى القارىء منه ما يجوده فى المواقف حسب مقتضى الحال.. فموقف المسرة غير موقف المضرة.. وقد روى لى الشيخ محمد محمود الطبلاوى حادثة وقعت له مع مقرئين آخرين فى احتفالية رعاها عاهل السعودية الراحل الملك فيصل.. فإذا بالقارىء الليبى يبدأ بآيات من الجحيم والعقاب.. أما هو فقد قرأ أيات من البشرى والتفاؤل.. فأثنى الملك عليه.. وقال قولته: نزل القرآن فى الحجاز، وطبع فى تركيا ــ وقرىء فى مصر..

بمؤشر القوة الصوتية، وشحناته العميقة ــ أى أن فيها روحاً ــ وإحساس المطرب نفسه بما يقول وفهمه له، وانتقاء ما يقول، مع عدم إهمال اللحن «اللابس» فى المعنى المنطوق، واستمرار العطاء زمناً طويلاً، وتنوعاً كثيراً، وتجوالاً ما بين القصيدة والأغنية والموشح ــ وهى الأشكال الشائعة فى زمننا هذا ــ كل هذا هو مؤشرات المطرب وعلو المطرب.

وبهذا الفهم فرؤيتى لطبقات المطربات ــ والتقسيم إلى طبقات تقليد أدبى عربى قديم ــ أن الطبقة الأولى فيمن استمعت إليهن، واللائى يملأن المساحة الزمنية من النصف الأخير من القرن الماضى حتى الوقت الراهن.. الطبقة الأولى تتربع فيها بدون شريك أم كلثوم.. ولو حركنا المؤشر تجاه الرجال فهى وحدها أيضاً فى الطبقة الأولى من كل المطربين، يليها فى الطبقة الثانية عبدالوهاب وناظم الغزالى ووديع الصافى وصباح فخرى وعبدالحليم حافظ وفريد الأطرش أما سيد درويش فبعيد عن هذه المقارنة بصفته ملحناً ومؤلفاً موسيقياً لا مجرد مطرب، ثم الطبقة الثالثة: محمد فوزى وكارم محمود ومحمد عبدالمطلب وسعد مأمون وأضرابهم:

أما المطربات فتضم الطبقة الثانية بالترتيب:

ــ أسمهان

ــ فيروز

والحق أننى متحير فى تقديم أى من المطربتين على الأخرى فأسمهان صوت طرب عظيم.. لكن مساحتها الزمنية ضيقة، وعطائها قليل الكم والتنوع، بالنظر إلى تنوع فيروز واستمرارها ما بين الأغنية والقصيدة والمسرح أو الأغنية الموظفة دراميا والموشح وغيره..

ويقف عقبة أمام تقديم فيروز على أسمهان انغراس فيروز فى اللهجة المحلية اللبنانية، التى لا تكاد تلتقطها الأذن ــ فى معظم الأقطار العربية وخاصة مصر ــ إلا بصعوبة.. وقد لا تلتقطها آذان عشرات الملايين من المصريين أبداً.. وبعض هؤلاء المصريين من أهالينا يغيرون مؤشر الإذاعة إذا أطلت منه فيروز الرائعة، ويقولون: ما هذا الصراخ؟ سمعت عشرات المرات هذا التعبير.. وكنت فى طفولتى أعتقده، حتى أخذت نفسى بالصبر على السماع، فإذا فيروز صوت من الجنة، وإذا فيروز ليست لهجة لبنانية فقط، بل مؤسسة شعرية عربية تتجول ما بين قادة الرومانسية فى مصر والمهجر ولبنان وتقتطف زهرات الشعر الراقى، وتميل إلى ورود التراث وعيون ألحان سيد درويش، وتقدمه كما لم يقدمه أحدا أبدا..

وتبقى فيروز مطربة المثقفين، وأحد ألسنة القومية العربية.. وتبقى متنازعة مع أسمهان على صدارة الطبقة الثانية من المطربات، وإن استأثرت الاثنتان معاً بهذه الطبقة دون الأخريات.

الطبقة الثالثة من مطربات زماننا تتربع فيها هؤلاء بالترتيب أيضا:

١ــ ليلى مراد

٢ــ سعاد محمد

٣ـ نجاة الصغيرة

٤ـ هدى سلطان

٥ـ صباح

٦ـ نجاح سلام

ولو تركت عاطفة التلقى وحدها تحكم هذه الطبقة لأقمت نجاة الصغيرة فى صدارتها.. لكن مقاييس التقدمة التى أوردتها ـ من وجهة نظرى أيضاً ـ أسفرت عن هذا الترتيب.. فلو سئلت من استمع بعد أم كلثوم من المطربات لتحيرت بين فيروز ونجاة الصغيرة أو نجاة الصغيرة وفيروز.. والخاصية «الكهربائية» التى تصلنى من نجاة لا من غيرها أبداً، أنها «أنثى تغنى» وليست مجرد مطربة.. أريد أن أتلمس الصوت ومصدر الصوت بأذنى ويدى وقلبى.. أحسها تحتاح إلىّ ـ كرجل ـ وهو إحساس باطل بغير شك!! أحسها تقيم فى غربة دائمة، وتبحث عن مجهول لاتراه، وتنشد أملاً لا يتحقق، وتسعى لحب تائه منها لم ولن تعثر عليه.. كل هذا يصلنى من الصوت، وتدعمه الصورة أحياناً.

ولو أن هدى سلطان وصباح أخلصتا للغناء أكثر من التمثيل، ومنحتا جل الجهد والدأب للطرب لكانت حصيلتهما أعظم مما هى الآن.. أما نجاح سلام ـ كسعاد محمد ـ فهى الصوت الرنان ذو الشخصية التى لا يخطئها المستمع العادى، ويستطيع صوت كلتيهما إقامة ألفة سريعة مع الأذن والقلب.. لكن نجاح لم تطلق سراح صوتها، وتدعه يبدو بقدراته الكاملة من حيث كم العطاء لا كيفه.

الطبقة الرابعة من المطربات

١ـ فايدة كامل، التى قصف صوتها فى عز شبابه، وكان يمكنها أن تلحق بالطبقة الثالثة لو لم تنغرس فى العمل السياسى، وتغنى لبعض الحكام غير المقبولين شعبيا!!

٢ــ نورالهدى.. ما نعرفه من أعمالها قليل، لكنه مؤثر.

٣ــ أحلام.. هى ونادرة قليلتا العطاء، رغم الكنز الذى كانتا تملكانه.

٤ــ فايزة أحمد.. قدمت الكثير.. وتوافر الطرب فى بعضه.

٥ــ حورية حسن.

٦ــ نادرة.

٧ــ شريفة فاضل.. وشريفة كمطربة شعبية ومعها كذلك خضرة محمد خضر وفاطمة عيد وزينب يونس.. لا ينحيهن انتماؤهن للغناء الشعبى عن كونهن مطربات مجيدات.. فالطرب الشعبى داخل فى عمق هذه التقسيمات، خاصة أن بعضهن كزينب يونس غنت قصائد فصحى.. ولو أن كل منهن قصدت للغناء الفصيح لما قصرت أبداً.

٨ــ زينب يونس.

٩ــ خضرة محمد خضر.

١٠ــ فاطمة عيد.

١ــ شادية.. وشادية صوتها ضعيف، لكنه حنون وداع، لا يتسلل إلى أعماق المستمع فحسب، بل يحتويه احتواءً.

١٢ مها صبرى.

١٣ عزيزة جلال.. واعتزالها المبكر وأد مشروعاً فنياً رائعاً

١٤ــ عايدة الشاعر.

١٥ــ عفاف راضى.

هذا هو الطرب والمطربات.. ماذا عن الغناء إذن والمغنيات؟!.. الغناء قدرة على أداء الكلمة الملحنة بجهارة ووضوح ناصع، لا يصيبن فتور أو خلل فى

الجهـاز الصوتى أو انقطاع النفس، ولا ينفـر منه المستمع، وإن لم يـطلب ويسعى إليـه ويتخـدّر به كالـطرب. وبعض المغنيات أقـوى صـوتاً من بعض المطربات.. والنمـوذج هنا المغنيـة ياسمـين الخيـام والمطربة نجـاة الصغـيـرة.. فنجاة تخـاطب القلوب وكل مسام الجسد والروح، أما ياسمين فتخاطب الأذن ولا تتعداها.. وقد تهتز لهـا الأذن لكن شيئا آخر لا يهـتز فى الروح أو الجسد.. وهذه الحقيـقة كانت غائبة عـمن حاولوا أن يفرضوها على أسـماع الناس وأذواقهم بإيعاز من جـيهان السـادات لتلغى بها سـيدة الغناء العـربى أم كلثـوم !! فلم تلغ إلا ياسمـين التى حُسبت على موقف سـياسى ضد الإبداع الـعظيم والعطاء الوطنى الطويل الذى تمثله أم كلثوم ولا ينافـسها فـيه أحد فى مـجال الفن.. وكم كانت الناس تسـتمع بامتعاض أو غيظ أو سخرية لأغنية عن ليلة العيد من ياسمين أرادت أن «تناطح» بها ليلة العيد لأم كلثوم!!

ولسنا بصدد المقـارنة بين عبقـرية «الست» وغيرها ولكن مـا كان يستـفز الناس حجب صوت أم كلثوم فى هذه المناسبة السنوية التى لا يصدق الناس قدومها إلا بأغنية أم كلثوم، وبث شىء آخـر غير مستساغ.. ولو أن ياسـمين غنت كما تغنى وردة أو سعاد حسنى مثلا لما احترقت ثم انزوت كـما حدث لها.. فصوتهـا غير منفر ــ كصوت كل مـغنية ــ ولم تكن مؤهلة لمعركة كهـذه.. فلو وضعت عينها على وردة أو واحدة من مطربات الـطبقة الثالثـة لما نفر منها أحـد، وما احـتجبت عن الأسماع بمجرد انتهاء أيام جيهان السادات ورجالها..

المغنى إذن يمكـن أن يسـمع، وقد يـمتـع بعض المتـعـة، وقد يـرضى به بعض من العامة.. ولذا لا ضيـر منه إذا اختار الكلمة الجيدة واللحن المبدع، ليـبقى هناك حاجز بينه وبين الهاوية التى سقط إليها شباب هذا الزمان ممن يدعون الطرب والغناء..

ويمكن فيها يقرب من الحصر أن نرتب مغنيات هذا الزمان على هذا الوجه:

ــ ياسمين الخيام.

ـ وردة.

ـ ماجدة الرومى.

ـ سعاد حسنى.

ـ عزة بلبع.

ـ إيمان الطوخى.

ـ نعيمة عاكف.

ـ أصالة.

ـ سوزان عطية.

ـ سميرة سعيد.

ـ نادية مصطفى.

ـ نوال الزغبى.

ـ أنغام.

ـ لطيفة.

ـ أنوشكا.

ويقابل هذا العدد من المغنيات عدد أقل من المغنين أمثال أحمد إبراهيم، وعلى وأحمد الحجار ـ وكان أبوهما مطرباً مجيداً ـ ومحمد منير ومحمد الحلو وهانى شاكر وإيمان البحر درويش ومحمد ثروت.. بعد أن توقف محمد العزبى ومحمد رشدى تقريباً عن الغناء، واختفت سائر الأصوات الغنائية المخضرمة التى عاصرت زمن ازدهار الطرب: أم كلثوم وعبدالوهاب وعبدالحليم وفريد الأطرش، ثم عصر الأنهيار الذى نعيشه الآن..

وهناك بعض الاجتهادات الصوتية من بنات هذا الزمن، لا يمكن الحكم عليها

وتقييمها لحداثتهن زمنياً ولأن بعضهن يفرضن سياسياً على ساحة الفن أو يدخلنها بأموالهن أو نفوذ أهلهن ورفاقهن!!

وليس من شك في أن آذاننا تلتقط بعض الأداء الصوتى لممثلين كبار كنجيب الريحانى وفؤاد المهندس وسمير غانم وسعيد صالح وأحمد زكى وهم يؤدون أعمالاً موزونة ملحنة فى سياقات درامية ما، عبر الشاشة الصغيرة أو الكبيرة وعلى خشبة المسرح.. وقد انخدع سعيد صالح فترة فى صوته وظن نفسه مغنياً وراح يتردد على بعض التجمعات الثقافية للغناء ولم يرفضه الناس لأنه صاحب قضية ويحاول تبنى هموم الفقراء والمظاليم والمطحونين فى مجتمعنا.. لكنه على ما يبدو أفاق من غفوته، وتاب عن المحاولة، وبقى ممثلاً رائعاً كما هو دائماً.. وما يفعله هؤلاء الممثلون مجرد «أداء» لا هو بالطرب ولا بالغناء.. واستمراره لا عيب فيه لأنه جزء من بناء درامى لا يقصد لذاته..

ومثل هؤلاء الرجال هناك فئة الممثلات: شويكار ونيللى ولبلبة وشيريهان من المؤديات أيضاً.. ويخضن تجربة الأداء لإضفاء صفة (الاستعراض) الفنى على أنفسهن.. فكل منهن تمثل وترقص، وتريد أن تغنى أيضاً.. فيخرج منهن الأداء لا الغناء، وإن كانت نيتهن طيبة.. وكل امرأة وما نوت!!

شجاعات.. مقاتلات

أغلب الظن أن المرأة خلقت للجماع!! لا للجلاد ولا للمنافحة، والمكافحة والمواجهة والتدافع فى ساحات الجهاد.. فهى طرية الجسد والإرادة، ابتلتها الطبيعة بالضعف وتقلب الطبع كل شهر عدة أيام!!

هى تخشى ظلها، وتخشى الحشرات، فئراناً وصراصير وأبراصاً، وثعابين.. ولا تحتمل رؤية الدماء تسيل والرجال تتألم، والأذرع تتطاير، والأعين تفقأ والأعمار تتحطم فى لحظة.. هذا هو أغلب الظن، وأقل الظن أنها حمول مقدام قد تخوض الحروب وتصرع الرجال، وتواجه الحكام بالقول الفصل والحجة الدامغة.. ولهذا كله وقائع ودلائل من تاريخ البشرية ومن سير النساء .. فلم يكن فى مصر القديمة للقوة رب بل كانت هنالك ربة.. هى (سخمت Sekmet: والمعنى الحرفى لكلمة سخمت هو «القوية». وكانت هذه ربة لبؤة، لها معابد أينما ذهب الأسود لشرب الماء، وكان مقر عبادتها فى منف حيث اعتبرت زوجة بتاح ووالدة نفرتوم إله اللوتس. واعتقد أنها مظهر لعين رع فى حالة غضبه ومهلكة أعداء الشمس، غير أن الناس عرفوا كيف يقيمون طقوس «ترضية سخمت» لجعل هذه الربة المتعطشة للدماء، وسيدة رسل الموت، وسبب الأوبئة، ربة خيرة. فمن عرفت كيف تقتل تعرف كيف تشفى، وهكذا كون «كهنة سخمت» جمعية من أقدم جمعيات الأطباء والجراحين البيطريين.) (٦٨)

وليس مجهولاً فى تاريخ البشرية تصدى نساء لقيادة الأمم: هن قائدات فى الحروب وفى السلام.. منهن حتشبسوت ونفرتيتى وكليوباترا وبلقيس وشجرة الدر وملكات انجلترا وأوروبا.. وهؤلاء النسوة علون فوق الضعف الطبيعى لتكوين المرأة، وسلم لهن الرجال بالقدرة والشجاعة.. لكن لو كان الطبيعى فى المرأة الشجاعة، والقتال لما كان هناك موضوع للبحث والحديث.. فنحن أمام حالات من القوة فى المرأة قليلة الحدوث، كما أنه ينبغى أن يكون الجبن والهرب من المواجهة والقتال نادراً فى الرجال ومن يدرس الرجال يتوقف عند الجنباء

منهم.. لأن الجبن فيهم غـير طبيعى.. وإن كان ظواهر أيضاً للشـجاعة المفرطة فى الرجال.. تقابل الشجاعة العادية فى النساء التى نتوقف عندها الآن.

ولا يغيب عنا أن المرأة قد تقود الجيوش مباشرة كقائد عسكرى.. والنموذج هنا السـيـدة عـائشـة أم المؤمنين.. ولهـا باع طويـل فى العلم والشـريعـة وهى تقـود أصحابهـا يوم الجمل فى مواجهـة على بن أبى طالب وتحض جنودها على رباطة الجأش والسكينة وتقـول لهم وقد (سمـعت منازعة أصحابهـا وكثرة صيـاحهم: المنازعة فى الحرب خـور، والصياح فيها فـشل، وما برأيى خرجت مع هؤلاء..) (٦٩)

يحفظ سجل التاريخ نمطين من النساء القادرات: الأول الشجاعات فى مواجهة الحكام والسلطة.. والثانى المقاتلات فى الميدان قـتال الرجال وقد يغلبن الأبطال.. ومخلّفـات الصراع الكبـير بين معـاوية بن أبى سفيـان وعلى بن أبى طالب على خلافة المسلمين تحمل حكايا كثيرة لهـؤلاء النسوة الشجاعات صاحبات المواقف الصـامدات فى كل حـال، والمواجهـات لمعاوية بـعد حـسمـه للمعـركة وتسلمـه للعرش منفرداً.

فهذا (سـهل بن أبى سهل التميمـى عن أبيه قال: حج معاوية، فـسأل عن امرأة من بنى كنانة كانت تنزل بالحجـون [جبل بمعلاة مكة] يقال لها دراميـة الحجونية، وكانت سوداء كـثيرة اللحم، فأخبـر بسلامتها، فبـعث إليها فجىء بها، فـقال: ما حـالك يابنة حام؟: فـقالـت: لست لحام إن عـبتنى، أنـا امرأة من بنى كنانة، قـال صدقت أتدرين لم بعـثت إليك؟ قالت: لا يعلم الغيب إلا الله، قـال بعثت إليك لأسألك علام أحببت عليا وأبغضتنى، وواليته وعاديتنى؟ قالت: أو تعفينى يا أمير المؤمنين؟ قال لا أعـفيك، قـالت: أما إذا أبيت. فإنى أحـببت عليـا على عدله فى الرعـية، وقـسـمه بالسـوية، وأبغـضتـك على قتـالك من هم أولى منك بالأمـر،

وطلبتك [طلبك] ما ليس لك بحق، وواليت عليا على ما عقد له رسول الله صلى الله عليه وسلم من الولاء [تشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه]، وحبه المساكين، وإعظامه لأهل الدين، وعاديتك على سفك الدماء، وجورك فى القضاء، وحكمك بالهوى، قال فلذلك انتفخ بطنك، وعظم ثدياك، وربت عجيزتك، قالت: يا هذا، بهند [هى بنت عتبة أم معاوية] والله كان يضرب المثل فى ذلك لابى، قال معاوية: يا هذه أربعى [ربع: وقف وانتظر وتحبس]، فإنا لم نقل إلا خيراً، انه إذا انتفخ بطن المرأة تم خلق ولدها، وإذا عظم ثدياها تروى [ارتوى] رضيعها، وإذا عظمت عجيزتها رزن مجلسها، فرجعت وسكتت قال لها: يا هذه، هل رأيت عليا؟ قالت: إى والله، قال: فكيف رأيته؟ قالت رأيته والله لم يفتنه الملك الذى فتنك ولم تشغله النعمة التى شغلتك، قال: فهل سمعت كلامه، قالت: نعم والله فكان يجلو القلب من العمى، كما يجلو الزيت صدأ الطست، قال: صدقت، فهل لك من حاجة؟ قالت: أو تفعل إذا سألتك؟ قال: نعم قالت: تعطينى مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها، قال: تصنعين بها ماذا؟ قالت: أغذو بألبانها الصغار، واستحيى بها الكبار، وأكتسب بها المكارم وأصلح بها بين العشائر، قال: فإن أعطيتك ذلك، فهل أحلُّ عندك محل على بن أبى طالب؟ قالت: ماء ولا كصدّاء، ومرعى ولا كالسّعدان، وفتى ولا كمالك، [صداء: عين لم يكن عندهم ماء أعذب من مائها .السّعدان نبت ذو شوك، وهو من أفضل مراعى الإبل، ولاتحسن على نبت حسنها عليه، ومالك: هو ابن نويرة. وقد قال أخوه متمم هذا فيه لمّا قُتل فى الردة. وهذه أمثلة ثلاثة تضرب للشىء يفضل على أشباهه] يا سبحان الله، أو دونه؟ [استفهام إنكارى منها. أى أولى بك أن تطلب دون محله لا أن تطلب مثل محله] فأنشأ معاوية يقول:

إذا لم أعُدْ بالحلم منى عليكم   فمن ذا الذى بعدى يُؤمّلُ للحلم

خذيها هنيئاً واذكرى فعل ماجد جزاك على حرب العداوة بالسلم

ثم قال: أما والله لو كان عليٌ حياً ما أعطاك منها شيئا، قالت: لا والله، ولا وبرة واحدة من مال المسلمين) (٧٠)

هذه مواجهة بين السلطان ــ سيد الواقع ــ والرعية صاحبة الحق.. مواجهة بين قوة الحق وقوة السلطة التى يمسك بها معاوية بن أبى سفيان المنتصر.. صراع بشرى فى أرقى مستوياته بين العقل والمثال من ناحية والواقع القاهر من ناحية أخرى وقد حدثت مواءمة بين هذا وذاك بدهاء معاوية ــ أمير المؤمنين ــ فلم يبطش بالمرأة الضعيفة المنهزمة، والقوية المنتصرة فى الوقت نفسه.. انهزمت بهزيمة حزبها المؤيد للإمام على ووفاة الإمام نفسه واستقرار معاوية على عرش الخلافة.. وانتصرت على نفسها وضعفها وخوفها والجشع البشرى الغريزى بمحاباة السلطان والنهم إلى المال والمحصلة أنها لم تتزحزح عن موقفها المؤيد لعلى، ولم تتنازل عن اعتناقها لما ترى من أفكار، ومع هذا جميعا نالت الحظوة والمال والتبجيل.. ورؤية معاوية لمثل هذه الحالة أنه «يشتريها» هى وأهلها ويشترى لنفسه سمعة طيبة و«دعاية سياسية» قبل أن يشيع هذا المصطلح فى عالم الحكم والسلطان.

هذه المرأة الشجاعة وضعت شجاعتها فى أيد أمينة: لدى داهية العرب أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان وابن هند بنت عتبة.. وهو واع بالمرأة وطبيعتها، وبالطبيعة العربية، وباشتعال جذوة الدين وحب آل الرسول فى نفوس المسلمين.. فبمثل هذه الشجاعة فى النساء غزا العرب المسلمون شرق الأرض ومغاربها.. فالمرأة الرعديد لا تلد إلا رعاديد الرجال، والشجاعة فى قلب المرأة تسرى إلى لبنها الذى ترضعه الأطفال.. ومعاوية يدرك هذا.

ودارمية الحجونية هذه واحدة من شجاعات النساء، ومثلها سودة بنت عمارة بن الأشتر الهمدانية التى وفدت على معاوية (فأستأذنت عليه، فأذن لها، فلما

دخلت عليه سلّمت، فقال لها: كيف أنت يا بنة الأشتر؟ قالت: بخير يا أمير المؤمنين، قال لها:

أنت القائلة لأخيك:

شمّرْ كفعل أبيك يابن عُمارة	يوم الطِّعان ومُلتقى الأقران
وانصرْ علياً والحُسين ورهطه	واقصد لهند وابنها بهوان
إن الإمام أخو النبى محمد	علَم الهدى ومنارة الإيمان
فقد الجيوش وسر أمام لوائه	قدما بأبيض صارم وسنان

قالت: يا أمير المؤمنين، مات الرأس وبتر الذنب، فدع عنك تذكار ما قد نسى،

قال هيهات، ليس مثل مقام أخيك ينسى، قالت: صدقت والله يا أمير المؤمنين، ما كان أخى خفى المقام، ذليل المكان، ولكن كما قالت الخنساء:

وإن صخرا لتأتم الهداة به	كأنه علم فى رأسه نار

وبالله اسأل أمير المؤمنين إعفائى مما استعفيته، قال: قد فعلت، فقولى حاجتك،

قالت: يا أمير المؤمنين، إنك للناس سيد، ولأمورهم مقلد، والله سائلك عما افترض عليك من حقنا. ولا تزال تقدم علينا من ينهض بعزك، ويبسط سلطانك، فيحصد حصاد السنبل، ويدوسنا دياس البقر، ويسومنا الخسيسة، ويسألنا الجليلة، هذا ابن أرطأة (هو بشر بن أرطأة. وكان معاوية فى أيام على سيره الى الحجاز واليمن ليقتل شيعة على ويأخذ البيعة. فسار إلى المدينة ففعل بها أفعالا شنيعة. وسار إلى اليمن، وكان عليها عبيد الله بن العباس من قبل على. فهرب عبيدالله. فنزلها بشر وذبح عبدالرحمن وقثم ابنى عبيد الله، وهما صغيران، بين يدى أمهما عائشة بنت عبدالمدان، فأصابها من ذلك حزن عظيم) قدم بلادى، وقتل رجالى، وأخذ مالى، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة، فإما عزلته عنا فشكرناك، وإما لا

فعرفناك، فقال معاوية: إياى تهددين بقومك! والله لقد هممت أن أردك إليه على قتب أشرس (القتب: الإكاف الصغير على قدر سنام البعير. وأشرس، صفة لموصوف محذوف، وهو البعير، أو الأشرس: الخشن الغليظ، وتكون صفة للقتب). فينفذ حكمه فيك، فسكتت ثم قالت:

صلى الإله على روح تضمنه قبر فأصبح فيه العدل مدفونا
قد حالف الحق لا يبغى به ثمنا فصار بالحق والإيمان مقرونا

قال: ومن ذلك؟ قالت: على بن أبى طالب رحمه الله تعالى، قال: ما أرى عليك منه أثرا، قالت: بلى، أتيته يوما فى رجل ولاه صدقاتنا، فكان بيننا وبينه ما بين الغث والسمين، فوجدته قائماً يصلى، فانفتل من الصلاة، ثم قال برأفة وتعطف: ألك حاجة؟ فأخبرته خبر الرجل، فبكى ثم رفع يديه إلى السماء، فقال: اللهم إنى لم آمرهم بظلم خلقك، ولا ترك حقك، ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب، فكتب فيها بسم الله الرحمن الرحيم. قد جاءتكم بينة من ربكم، فأوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين، بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ: إذا أتاك كتابى هذا فاحتفظ بما فى يديك، حتى يأتى من يقبضه منك، والسلام. فأخذته منه يا أمير المؤمنين ما خزمه بخزام، ولا ختمه بختام.

فقال معاوية: اكتبوا لها بالإنصاف لها والعدل عليها، فقالت: ألى خاصة، أم لقومى عامة؟ قال: وما أنت وغيرك؟ قالت: هى والله إذا الفحشاء واللؤم إن لم يكن عدلاً شاملاً، وإلا يسعنى ما يسع قومى، قال: هيهات، لمظكم (التلمظ: التذوق، وتتبع بقية الطعام فى الفم باللسان) ابن أبى طالب الجرأة على السلطان، فبطيئا ما تفطمون وغركم قوله:

فلو كنت بوابا على باب جنة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وقوله:

نادیت همدان والأبواب مغلقة ومثل همدان سنى فتحة الباب

كالهندوانى لم تفلل مضاربه وجه جميل وقلب غير وجاب

اكتبوا لها بحاجتها) (٧١).

قصة قصيرة مكتملة الأركان: زمان ضمنى معروف، هو مدة اللقاء نفسه: ساعة أو أقل.. ومكان معلوم هو مقر خلافة معاوية.. وشخوص تتصارع وتتناحر مباشرة: المرأة (سودة بنت عمارة) ،والرجل: معاوية بن أبى سفيان.. وشخوص تتصارع من خلال السرد: أخو سودة، وعلى، والحسين.. ووالى على على الصدقات ووالى معاوية الظالم.. ثم هنالك حجاب معاوية الذين يأمرهم أن يكتبوا لها.

حوار مشحون متوتر، يصل إلى لحظة الذروة بالصراع المباشر بين معاوية وسودة، حينما يهددها بإعادتها إلى خصمها الوالى للقصاص منها.. تعذيبها وقتلها.. تم تنفك العقدة، باسترجاع المرأة لموقف مماثل مع على، وتأثر معاوية بما حدث وروته المرأة مع استبطانه لنفوس الناس من قبائل همدان وغيرها.

وهذه المواجهة والجرأة من المرأة فى الحق لا تحتاج إلى استفاضة وإشادة.. إنها نفس عربية أبية، وتقدم مصلحة أهلها على نفسها.. لا خوف ولا انتهازية.. وأمام «المشنقة» تهديداً، وكنوز معاوية إغراء.. ولا تهتز.. والخاتمة جاءت حيث شاءت سودة.. وبأعظم مما يفعل الرجال فى الحرب أو المواجهة

.. وحمت أهلها من الذبح، والظلم وحمت المسلمين من مواجهات ودماء.

وفى مسرح الأحداث نفسه كانت حكاية الزرقاء بنت عدى.. فبينما (كان معاوية ذات ليلة مع عمرو وسعيد وعتبة والوليد، إذ ذكروا الزرقاء بنت عدى بن غالب بن قيس الهمدانية، وكانت شهدت مع قومها صفين، فقال: أيكم يحفظ كلامها؟ قال: بعضهم نحن نحفظه يا أمير المؤمنين، قال: فأشيروا علىِّ فى أمرها،

فقال بعضهم: نشير عليك بقتلها، قال: بئس الرأى أشرتم به عليِّ، أيحسن بمثلى أن يتحدث عنه أنه قتل امرأة بعدما ظفر بها! فكتب إلى عامله بالكوفة أن يوفدها إليه مع ثقة من ذوى محارمها، وعدة من فرسان قومها، وأن يمهد لها وطاء لينا، ويسترها بستر خصيف (غليظ) ويوسع لها فى النفقة. فأرسل إليها فأقرأها الكتاب، فقالت: إن كان أمير المؤمنين جعل الخيار إلىِّ فإنى لا آتيه، وإن كان حتم فالطاعة أولى. فحملها وأحسن جهازها على ما أمر به. فلما دخلت على معاوية، قال: مرحبا وأهلا، قدمت خير مقدم قدمه وافد، كيف حالك؟ قالت: بخير يا أمير المؤمنين، أدام الله لك النعمة، قال: كيف كنت فى مسيرك؟ قالت: ربيبة بيت أو طفلا ممهدا، قال: بذلك أمرناهم، أتدرين فيم بعثت إليك؟ قالت: أن لى بعلم، ما لم أعلم، قال: ألست الراكبة الحمل الأحمر، والواقفة بين الصفين يوم صفين تحضين على القتال، وتوقدين الحرب، فما حملك على ذلك؟ قالت: يا أمير المؤمنين. مات الرأس، وبتر الذنب، ولم يعد ما ذهب، والدهر ذو غير، ومن تفكر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر، قال لها معاوية: صدقت. أتحفظين كلامك يوم صفين؟ قالت: لا والله لا أحفظه ولقد أنسيته، قال: لكنى أحفظه، لله أبوك حين تقولين: أيها الناس، ارعووا وارجعوا، إنكم قد أصبحتم فى فتنة غشتكم جلابيب الظلم، وجارت بكم عن قصد المحجة، فيالها فتنة عمياء، صماء بكماء، لا تسمع لنا عقهنا، ولا تنساق لقائدها. إن المصباح لا يضيىء فى الشمس، ولا تنير الكواكب مع القمر، ولا يقطع الحديد إلا الحديد. ألا من استرشدنا أرشدناه، ومن سألنا أخبرناه. أيها الناس، إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها، فصبرا يا معشر المهاجرين والأنصار على الغصص، فكأن قد اندمل شعب الشتات، والتأمت كلمة العدل، ودفع الحق باطله، فلا يجهلن أحد، فيقول: كيف العدل وأنى، ليقض الله أمرا كان مفعولا. ألا وإن خضاب النساء الحناء، وخضاب الرجال الدماء، ولهذا اليوم ما بعده «والصبر خير فى الأمور عواقبا» إيها فى

الحرب قدما غير ناكصين ولا متشاكسين.. ثم قال لها: والله يا زرقاء لقد شركت عليا فى كل دم سفكه، قالت: أحسن الله بشارتك، وأدام سلامتك، فمثلك بشر بخير وسر جليسه، قال: أو يسرك ذلك؟ قالت: نعم والله لقد سررت بالخبر فأنى لى بتصديق الفعل، فضحك معاوية وقال: والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب من حبكم له فى حياته، اذكرى حاجتك، قالت: يا أمير المؤمنين، آليت على نفسى أن لا أسأل أميرا أعنت عليه أبدا، ومثلك أعطى من غير مسألة، وجاد عن غير طلبة، قال: صدقت، وأمر لها وللذين جاءوا معها بجوائز وكسا) (٧٢).

من مجمل هذه الشواهد - وما سوف يلى - تبدو الأنثى الحقيقية والأنثى المجازية طرفا فى القتال مباشراً.. فالمرأة تضرم نار الحرب وتسن لسانها دفاعا عن المعتقد الذى توقنه.. وسلاحها الشعر والنثر معاً.. والتوقف عند حديث الزرقاء بنت عدى لتقييمه فنيا يستغرق وقتاً طويلاً وصفحات ممتدة وهو جدير بكل توقف وتمعن واستمتاع بما يحمل من قيم فنية وشحنات نفسية وانتقاء للمفردات وتكرار وقت الحاجة وايجاز اذا أفاد الإيجاز.

واللافت للنظر - للمؤرخ ولمعاوية نفسه - أن كل هؤلاء النسوة العربيات اعتنقن رأى على بن أبى طالب عن رضا وإيمان، ودافعن عنه بلا خور ولا مواربة، وحافظن على موقفهن بعد رحيل على نفسه.. وربما يبدو هذا الوفاء واردا فى بيئة العرب المشحونين بالإسلام وتعاليمه الانسانية الساطعة.. أما الغريب على الطبيعة البشرية أن الخصم المنتصر - معاوية - يكرم أعداءه المنهزمين.. ولا يعاقبهن بمدح عدوه - على - بعد رحيله أمام عينيه وفى حرمه ومقر حكمه.. وقد يشير باحث الى أن هذه شيمة إسلامية أيضاً.. لكن بعض الوقائع ترد على غير هذا.

فقد قيل إن (عمرة بنت النعمان بن بشير الأنصارية: امرأة المختار الثقفى، كانت من ذوات الأدب والحسب والنسب، ولما قتل المختار جيىء بها الي مصعب بن

الزبير فسألها عما تقول فى زوجها، فأثنت عليه، فحبسها مصعب وكتب إلى أخيه عبدالله أنها تزعم نبوة المختار، فأمره بقتلها، فقتلها ليلا بين الكوفة والحيرة، وللشعراء فى قتلها كلام) (٧٣).

فهذا مأخذ على عبدالله ومصعب ابنى الزبير، وهما من هما فى الإسلام، إيماناً وأهلاً، لكن «السياسة» أو الحكمة غابت عنهما هذا الموقف.. فالحاكم لا يقتل أسيره، فما بالنا لو كان الأسير امرأة، وما بالنا لو كانت المرأة مسلمة - كالحاكم؟!

أما الادعاء بأنها تزعم نبوة المختار بعد أن قتل فأمر غير مصدق ولا دليل عليه، لأنها قتلت.. وكان من حسن التصرف - كفعل معاوية - أن تمتدح المرأة لأنها تدافع عن زوجها المقتول وتخلص له.. وبمثل هذه المواقف من معاوية ونقيضها من خصومه انتصر معاوية.. ومعه واصلت الحضارة العربية شق طريقها لاحتواء الآخرين فى عباءتها الواسعة وصهرهم فى بوتقة إنسانية عامة شارك فى صياغة محتواها المسلمون جميعا من سنة وشيعة وخوارج، وأفراد من غير مسلمين.

ومواقف معاوية كثيرة ومتشابهة مع أخريات، ومواقفهن معه أيضاً من رفضه والتحريض عليه ومحاربته كثيرة.. ومن هؤلاء أم سنان بنت خيثمة بن خرشة المذحجية.. وهى القائلة فى على بن أبى طالب:

قد كنت بعد محمد خلفا كما ... أوصى إليك بنا فكنت وفيا

فاليوم لا خلف يؤمل بعده ... هيهات نأمل بعده إنسيا (٧٤).

ومنهن كذلك عكرشة بنت الأطرش بن رواحة وبكارة الهلالية.

وتتوالى حلقات الشجاعة النسائية فى مواجهة الظلم ودفاعا عن الحق والموقف المعتنق وعن الأهل، فى عهود غير عهد معاوية.. فهذه امرأة نكرة من نساء العرب تواجه قوة عتية من السلطان والحكم.. والحكاية (عن قحطبة بن حميد قال: إنى

لواقف على رأس المأمون يوماً وقد جلس للمظالم، فكان أخر من تقدم إليه.. وقد هم بالقيام امرأة عليها هيئة السفر، وعليها ثياب رثة، فوقفت بين يديه فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فنظر المأمون إلى يحيى بن أكثم فقال لها يحيى:

وعليك السلام يا أمة الله، تكلمى بحاجتك. فقالت:

يا خير منتصف يهدى له الرشد ويا إماما به قد أشرق البلد
تشكو إليك عميد القوم أرملة عدى عليها فلم يترك لها سبد
وابتز منى ضياعى بعد منعتها ظلما وفرق منى الأهل والولد

فأطرق المأمون حينا، ثم رفع رأسه إليها وهو يقول:

فى دون ما قلت زال الصبر والجلد عنى وأقرح منى القلب والكبد
هذا أذان صلاة العصر فانصرفى وأحضرى الخصم فى اليوم الذى أعد
فالمجلس السبت - إن يقض الجلوس لنا ننصفك فيه - وإلا المجلس الأحد

قال: فلما كان يوم الأحد جلس، فكان أول من تقدم إليه تلك المرأة، فقالت:

السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فقال: وعليك السلام. ثم قال:

أين الخصم؟ فقالت: الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين - وأومأت إلى العباس ابنه - فقال: يا أحمد بن أبى خالد: خذ بيده فأجلسه معها مجلس الخصوم. جعل كلامها يعلو كلام العباس، فقال لها أحمد بن أبى خالد يا أمة الله، إنك بين يدى أمير المؤمنين، وإنك تكلمين الأمير، فأخفضى من صوتك. فقال المأمون: دعها يا أحمد، فإن الحق أنطقها والباطل أخرسه. ثم قضى لها برد ضيعتها إليها، وظلم العباس بظلمه لها، وأمر بالكتاب لها إلى العامل الذى

ببلدها أن يوغر (أى يسقط عنهـا خراجها) لها ضيـعتها ويحسن معـاونتها، وأمر لها بنفقة) (٧٥).

سلطة الأمـير لم تقـمع الحق على لسان امـرأة من العامـة، لا تسندها قبـيلة ولا أسـبقـية فى الاسـلام، ولا نفـوذ وقطعت البلاد إلى الخـليفـة المأمون، وواجـهت المخاطـر: مخاطر الـطريق ووعورتهـا، ومخاطـر الخذلان من الخليـفة، ومخـاطر اعتداء الأمير عليها.. وكان جزاء شجاعتـها إنصافها ورفعها فوق الأمير، بعد أن حط ظلم الأمير مرتبته ليتساوى بها، ويجلس معها فى قفص الاتهام.

ولا يفوتنا النظر إلى بلاغـة كل هؤلاء النسوة ونبوغـهن، لا مجرد الشجـاعة.. وقد كان هذا النبـوغ مع الصدق والحق والوفاء دافع قوتهـن، وقد تجردن من كل قوة مادية.. العرب والحكام حينما كانوا يسـحرون بالبلاغة فى شعر ونثر، ويرون من الخـسـارة قـتل هذا الابداع لأنه مـوهبـة من الله تشـجع لا تدفن.. إنهـا نظرة أصحاب التحضر والرقى إلى الفكر والإبداع.. وهى نظرة مناقضة للواقع العربى الراهن.. الشعراء والناثرون الآن فى ذيل اهتمامات نظم الحكم، هم كائنات نكرة منكرة، ويعذبون بإبداعهـم.. فإن كان المبدع رجلا فعليـه أن ينفق على إبداعه من تعب ساعـديه، وقد يموت جوعـا وتشردا وكمـدا أو وحدة كعـبدالحمـيد الديب وصالح الشـرنوبى وأحمـد فتحى ومـحمد الأسـمر وأمل دنقل ومـحمد مـهران السيـد.. وإن كان امـرأة التصـقت بها تهم جـمة وتسـاؤلات وضيعـة: من الذى يكتب لها، وعمن تتكلم اذا تغزلت ومن تقصد إذا وصفت.. وربما صدقت بعض الحـالات، لكنهـا لا تصـدق على الإطلاق.. فليس هنالك شك فـى قيـمـة نازك الملائكة وسلمى الخـضـراء الجـيوسى ومى زيادة وملـك حفنى ناصـف وعائشـة عبدالرحمن وسهير القلماوى وملك عـبدالعزيز.. حتى أحدث حلقات المبدعات من النساء: هالة البدرى ونعـمات البحيرى وابتهال سـالم ومنار فتح الباب وعزة عدلى وهالة فهمى وسحر سامى وأمل جمال وميرفت العزونى وعزة أنور ونجلاء

محرم وسناء الجبالي وبشري أبو شرار.

وإذا كانت بلاغة النساء تسندهن فى المواقف الصعبة، وتمنحهن قوة المواجهة للسلطان والظلم، فإن هذه القدرة أحيانا تخيف الخصم أشد خوفا من السيف.. فقد (قامت امرأة من تغلب إلى الجحاف بن حكيم حين أوقع بالبشر فقتل الرجال، وبقر بطون النساء فقالت له، فض الله فاك، وأصمك وأعماك، وأطال سهادك، وأقل رقادك، فوالله إن قتلت إلا نساء أسافلهن دمى وأعاليهن ثدى. فقال الجحاف لمن حوله: لولا أن تلد مثلها لخليت سبيلها) (٧٦).. وحتى هذا المصير الذى حل بالمرأة البليغة الشتامة لم يصرف عدوها القادر عليها من الاعتراف بمكانتها، وخوفه من إنجاب أمثالها يقفون فى وجهه: شجاعة وحجة.

******

والوجه الآخر من وجوه الشجاعة النسائية لا تقف على أطراف الفعل، بل تمارسه ضرباً وطعناً فى ساحات القتال كما كانت تفعل مريم الجعيداء زوجة أبى حمزة التى قتلت مع زوجها دفاعاً عن مكة علي يد ابن عطية.. وكانت ترتجز بقولها:

أنا الجعيداء وبنت الأعلم ... من سال عنى فأسمى مريم

بعت سوارى بسيف مخذم (٧٧)

وقد تقهر المرأة الرجال فرادى وجماعات فها هى ذى (الصحابية الجليلة أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية الأوسية، وهى بنت عم معاذ بن جبل، وكان يقال لها «خطيبة النساء» شهدت اليرموك وقتلت يومئذ تسعة من الروم بعمود فسطاطها، وعاشت بعد ذلك دهراً) (٧٨).

فلم تكن تحارب بسيف وتحتمى بدرع.. سلاحها كان عمود خيمتها.. انها القوة والجرأة ولم تقصف الشجاعة عمرها، بل عاشت شجاعة وماتت فى حجرة

نومها.

ومن الفارسات كذلك ذائعات الصيت (غزالة، امرأة شبيب بن يزيد: من شهيرات النساء فى الشجاعة والفروسية. ولدت فى الموصل وخرجت مع زوجها على عبدالملك بن مروان سنة ٧٦ هـ فكانت تقاتل فى الحروب قتال الأبطال. وأشهر أخبارها فرار الحجاج منها فى احدى الوقائع. وقد عيره بذلك الشعراء. قتلها خالد بن عتاب الرباحى فى معركة على أبواب الكوفة قبيل غرق زوجها شبيب) (٧٩).

ذاك الحجاج بن يوسف الثقفى «البعبع» فر من غزالة الزوجة.. ترى ماذا كانت تفعل بزوجها حينما يتشاجران؟!!

****

شاعرات

- الجدات
- الحفيدات

إذا كان للمـرأة أن تنبغ فى فن من فنون الشعر فهـو الرثاء.. والرثاء درجات.. كل امرأة تجـيد منه شيـئاً.. يبدأ بالدمع والنشـيج والنحيب.. وينتهى بالشـعر لمن صفـت طبيعـتهن، وجـاوزن الزائل والضعـيف إلى الخالـد والقوى.. فمـن كان يعرف صخراً أخا الخنساء الذى صار مثلاً بعض ما قالت فيه:

وإن صخـــرا لتأتم الهـــداة به | كأنـــه علـــم فى رأسه نار

فبث أحزانها إبداعاً بقى وأبقى معـه من كتب فيه.. ولو عاش صخر هذا ألف عام، ما خلد كما خلده بيت شعر لأختـه الخنساء الشاعرة المخضرمة، التى كانت جـاهليـة وأدركت الإسـلام، فـأسلـمت، وواصلت عطاءها لدين اللـه بالكلمـة وبشهادة أبنائها.. وضخت وميضاً من دمـاء الشعر فى ابنة لها تسمى: عمرة بنت مرداس بن أبى عامـر، وكانت (شاعرة كأمـها. كان لها أخـوان «يزيد والعباس» فقتل يزيد بثأر قيس بن الأسلت، ومات الـعباس فى الشام سنة ١٦ هـ، فجعلت ترثيهما وتندبهمـا فأشبه حديثها حديث أمها من قـبلها. وقد اختار أبو تمام بعض شعر عمرة فى ديوان الحماسة). (٨٠)

لم يكن أمام المرأة فى مواجـهة عدوان الدهر على أحبـائها وذويها إلا أن تنفث أحزانها شـعراً، فمات من مـات، وعاش الشعر مـخلدا إياه منذ الزمان المبكر فى صدر الإسلام.. فـفى المبارزة التى كانت بين على بن أبى طالب وعمـرو بن عبد ود بن نضر بن مالك يوم الخندق، وانتصر فيها على، يقول الحصرى:

ولما قـتل عمـرو جاءت أختـه فقـالت: من قتله؟ فـقـيل: على بن أبى طالب، فقالت: كفء كريم! ثم انصرفت وهى تقول:

لو كان قاتـــل عمـرو غير قاتلــــه | لكنـت أبكى علـيه آخـر الأبـــد
لكـــن قاتــــله لا يعـــاب بـــه | وكان يدعى قديمـــاً بيضـة البلـد
من هاشم فى ذراها وهى صاعـدة | إلى السماء تميت الناس بالحسد

قوم أبى الله إلا أن يكون لهم | مكارم الدين والدنيا بلا أمد
يا أم كلثوم بكيه ولا تدعى | بكاء معولة حرى على ولد

أم كلثوم بنت عمرو بن عبد ود. و«بيضة البلد» تمدح به العرب وتذم فمن مدح به جعله أصلاً. كما أن البيضة أصل الطائر، ومن ذم به أراد أن لا أصل له. (٨١)

ولم يعم الحزن أم كلثوم عن مدح قاتل أخيها.. لأن عظمة القاتل عند العرب تصبغ على المقتول.. وبدا شيء من الروح الإسلامى، ولغة الخطاب الإسلامى.. لكن التسليم بالقضاء والقدر لا يستمر فى سائر الأبيات، بل ينقض فى آخر بيت حينما تطلب من نفسها الندب الأبدى عليه كأحر ما يكون!!.. وشيوع الروح الإسلامى فى الأبيات يشكك فى انتمائها لامرأة جاهلية كافرة.. لكنه لا يشكك فى أن أم كلثوم بنت عمرو بن عبد ود شاعرة، وإلا ما حملوها أبياتاً من الشعر.. وربما كانت صاحبة البيت الأخير، وسبقته أبيات تهجو قاتله على بن أبى طالب، فغيرها الرواة بما لا يسىء إلى الرسول وصحبه وقرابته.. واحتمال وارد أن تكون الأبيات لها، وقد أطلقتها مع طرق الإيمان أبواب قلبها.. ولم يكن غريباً عن الجاهليين مفاهيم الإسلام وتوجهاته التى قاتل النبى باللسان والحكمة والموعظة والسيف والرمح لنشرها بين الجاهلين.. وتبقى الحقيقة الراسخة: أن أم كلثوم كانت شاعرة.

وموقف آخر شبيه بهذا، رثت فيه قتيلة بنت الحارث أخاها النضر.. وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - قد قتل النضر بن الحارث، وكان ممن أسر يوم بدر وكان شديد العداوة لله ولرسوله، وقتله على بن أبى طالب صبراً، فعرضت للنبى - صلى الله عليه وسلم - أخته قتيلة بنت الحارث - وفى بعض الروايات أن قتيلة أتته فأنشدته:

ياراكبا إن الأثيل مظنة | من صبح غادية وأنت موفق
أبلغ بها ميتاً بأن تحية | ما إن تزال بها النجائب تعنق
منى إليه وعبرة مسفوحة | جادت بواكفها وأخرى تخنق

هل يسمعني النضر إن ناديته إن كان يسمع ميت لا ينطق

ظلت سيوف بني أبيه تنوشه لله أرحام هناك تشقق

قسراً يقاد إلى المنية متعباً رسف المقيد وهو عان موثق

أمحمد ها أنت صنو كريمة في قومها والفحل فحل معرق

ما كان ضرك لو مننت وربما من الفتى وهو المغيظ المحنق

فالنضر أقرب من قتلت قرابة وأحقهم إن كان عتق يعتق

أو كنت قابل فدية فليفدين بأعز ما يغلي به من ينفق

فذكر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رق لها ودمعت عيناه، وقال لأبي بكر: لو كنت سمعت شعرها ما قتلته. والنضر هذا هو النضر بن الحارث ابن علقمة بن كلدة بن عبدمناف بن عبدالدار. قال الزبير بن بكار: وسمعت بعض أهل العلم يغمز في أبيات قتيلة بنت الحارث ويقول: إنها مصنوعة. (٨٢). وسواء أكانت مصنوعة - منحولة - أو منتمية لقتيلة، فإنها تؤكد مع غيرها من القصائد وجود شاعرات نابغات في ذلك الزمن المبكر من تاريخ العرب، ونبوغ هؤلاء الشاعرات في الرثاء، فمشاركتهن في صياغة أحداث ذلك التاريخ تمثلت أولاً في تسجيله شعراً.. وقد تكون قتيلة رثت أخاها وذمت المسلمين، فاسقط الرواة ذمها.. لكن طبائع الأشياء تؤكد أن شاعرة يقتل أخوها هذه القتلة لابد أن ترثيه.

ونبوغ الشاعرات في الرثاء يمتد بامتداد حضارة العرب.. فبعد أيام الرسول بقليل، في زمن معاوية، وأثناء ثورة حجر بن عدى ضده بعد مقتل على، نجد شاعرة كوفية تودع حجرا« حين سير به إلى معاوية بهذا النغم الحزين:

ترفع أيها القمر المنير ترفع هل ترى حجراً يسير

يسير إلى معاوية بن حرب ليقتله كما زعم الخبير

بجبرت الجبابرة بعد حرب — وطاب لها الخورنق والسدير
وأصبحت البلاد له محولا — كأن لم يحيها يوماً مطير
ألا ياحجر، حجر بنى عدى — تلقتك السلامة والسرور
أخاف عليك ما أردى عديا — وشيخاً فى دمشق له زئير
فإن تهلك فكل عميد قوم — إلى هلك من الدنيا يصير (٨٣)

ويستمر الشك فى نسبة هذه الأبيات إلى شاعرة بعينها، وإن كانت المصادر كلها تؤكد أن صاحبتها شاعرة ما، ليس شاعراً.. قد تكون ابنة حجر أو هندا الأنصارية أو غيرهما.. وإن بدا تأجج العاطفة فى الأبيات خارجاً من قلب جريح ونفس تتفجر حزناً، وإن تصنعت الصلابة.. هى أقرب إلى صلة الرحم.. والأبيات لوحة من الإبداع السهل الممتنع الفذ، تبدأ بإعلان العزة والشموخ، فحجر لم يرتكب جرماً ليحنى له القمر رأسه، بل هو مدافع عن حق فى مواجهة الجبابرة الذين سيتجبرون بعده أكثر.. وهو ليس إلا سيداً وعميداً للقوم يموت كما يموتون.

والأبيات لا تبدأ بقتل حجر، بل بحياته العالية، وسيره فى وضح القمر، ليس مساقا ولا «مجروراً» على وجهه.. وهو سائر وعارف بمصيره «ليقتله» معاوية بن «حرب» ولم تقل ابن أبى سفيان ولا ابن هند!! ومع العلم بهذا المصير يتسلل أمل ما فى ألا يلقاه.. فهو لم يقتل فعلاً بل «ليقتله» بما يفيد الاستقبال أو ما هو قادم، وقد يكون هذا المصير مجرد «زعم» كما يقول الخبير بهذا الشأن وهذه النهاية.. وتستمر الأبيات كاشفة حالات متفاوتة من الخوف والقلق والأمل القليل واليأس والعزة والدعوة إلى الصمود والصبر.

ويستمر تجهيل الشاعرات، حينما يقول الجاحظ: وقالت امرأة من بنى أسد:

ألا بكر الناعى بخير بنى أسد — بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد
فمن كان يعيا بالجواب فإنه — أبو معقل لا حجر عنه ولا صدد

أثاروا بصحـــراء الثـوية قـــبره   وما كنت أخشى أن تناءى به البلد (٨٤)

ويبدو أن انشغـال المؤرخين والكتاب القدامى بالحدث كان يصرفـهم عن توثيق الشعر أحياناً، خاصة إذا كانت الأبيات من لدن امـرأة، لا تحترف الشعر، ولا تعرف به، ولا تأتيه إلا لماماً فى الظروف والحـوادث.. ونرى نحن فى هذه الظاهرة إهمـالاً لحق المرأة فى أن ينسب إليهـا جهدها الإبداعى.. وقد يعـود السبب إلى عدم أخـذ المرأة الشاعرة بتقـاليد ذلك الزمـان، بأن تتخذ لـنفسهـا راوية يحفظ أشـعارها، وينشـدها للناس، ويذيعـها فى الأسواق وعلى ألسنة الحافظين:

وتتواصل المناحة النسائية الطويلة مع الفارعة بنت طريف، وقولها:

ذكـــرت الوليـــــد وأيامـــــه   إذ الأرض من شـخصه بلقـــع

فأقبلــــت أطلـبه فى الســـماء   كما يبتـــغى أنفـــه الأجـــــدع

أضاعـــك قومـــك فليطلبـــوا   إفـــادة مـــثل الذى ضيعـــوا

لو أن الســـيوف التى حـــدها   يصيـــبك تعلـــم ما تصنـــع

نبـــت عنـــك إذ جعلـت هيبـة   وخوفاً لصولك لا تقطع (٨٥)

حالـة القتل هنا ليـست ساخنة.. هى ذكـرى، تستـعيـدها الشاعـرة، بعد أن أضحت الأرض بلقعـاً برحيل «الوليـد» هو الاخضرار والرى لهـا.. وتطلعت إلى السمـاء تطلبه منها، لكنه طلب اليـأس كما لو كان الأجـدع يطلب عودة ما قطع من أنفه إلى مـوقعه!! وهو كذلك لا مـثيل له فى قـومه ولو حاولوا تعـويضه.. ومع غليـان الإحساس بالفـقد واليأس من التعويض ينتقل الإحساس إلى السيوف التى تناولته وهى لا تدرى من يكون ولا أى جرم ترتكب.. وإلا لحـادت عنه ونبت وثلمت هيبة منه، وخوفـاً من صولاته فى الميدان..

التـمايز فى طبـيـعة الرثاء بـالنظر إلى ما قـبل هذه المقطوعـة يبـدو فى البيـتين الأخيرين، بإسناد بطولة إنسانية إلى السيوف: الجمادات

وتبدو صفات الراحل مفصلة، ومحصورة فى دواعى الفخر القديمة من كرم ونجدة وشجاعة لدى زينب أخت يزيد بن الطثرية، وهى ترثيه:

أرى الأثل من بطن العقيق مجاورى   قريباً وقد غالت يريد غوائل
فتى قد قد السيف لا متضائل   ولا رهل لباته وبادله
فتى لا يرى خرق القميص بخصره   ولكنما توهى القميص كواهله
إذا نزل الأضياف كان عذورا   على الحى حتى تستقل مراجله
مضى وورثناه دريس مفاضة   وأبيض هندياً طويلاً حمائله
يسرك مظلوماً ويرضيك ظالماً   وكل الذى حملته فهو حامله
أخو الجد إن جد الرجال وشمروا   وذو باطل إن شئت ألهاك باطله (٨٦)

ولا نرى مفردة الموت أو القتل تتخلل القصيدة أو المقطوعة، إنه «مضى» ولم يرثوا غير درعه، فهو فارس كريم سخى اليد.. والمقطوعة تبدأ بالغيلة التى اغتالته، ثم الاستفاضة فى سجاياه حيا، لتعود الشاعرة فى بيت آخر: (مضى وورثناه...) إلى رحيله، وتعرج للمرة الثانية إلى شمائله وهو على قيد الحياة.. كأن نفسها ينقطع عن تذكر محاسنه، فتشير إلى موته، ثم تشهق شهقة وتزفرها بيتين جديدين.

هذا الاضطراب يوحى بعدم الصدق.. وربما بضعف الشاعرية، وربما تشوش الذهن لدى الشاعرة التى ترثى أقرب المقربين إليها: أخاها...

وتتحدث ابنة وثيمة عن أبيها وثيمة بن عثمان، حديث الأهل والأقربين، فهم يجوعون كأبناء لأن أباهم يسخو بماله لمن يحتاج، وينقذ الأغراب فى الملمات.. أى يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة.. وهو مع كل مظاهر السخاء كان شجاعاً مقاتلاً وكان حكيماً.. هى السمات التقليدية للرجل المثالى من الوجهة العربية القديمة.. ولم تبد من ملامح المعرفة الدقيقة «للراحل» إلا كونه يجوع أبناءه من أجل المحتاجين!!

تقول ابنة وثيمة:

(الواهب المال التلاد ... ندى ويكفينا العظيمه
ويكون مدرهنا إذا ... نزلت مجلحة عظيمة
واحمر آفاق السما ... ء ولم تقع فى الأرض ديمه
وتعذر الآكال حتى ... كان أحمدهما الهشيمه
لا ثلة ترعى ولا ... إبل ولا بقر مسيمه
ألفيته مأوى الأرا ... مل والمدفعة اليتيمه
بلسان لقمان بن عا ... د وفصل خطبته الحكيمة
ألجمتهم بعد التدافع ... والتجاذب فى الحكومة) (٨٧)

والالتفات فى البيت الأخير - التحول من ضمير الغائب إلى المخاطب - نقل وثيمة بن عثمان من الموت للحياة.. لقد نسيت ابنته، وتناست أنه ميت، هو لديها مازال ماثلاً أمامها وأمام القوم يلجمهم بحكمته وخطبه..

****

وإذا كان الرثاء - أو الولولة الفنية - صفة نسائية نبغ فيها بعض الرجال، فإن معظم الفنون الشعرية الأخرى صفات رجالية نبغ فيها بعض النساء.. فهذه ابنة حسان بن ثابت تجيز عن أبيها بعد أن حاول القول فانقطع.. وكان حسان قد (أرق) ذات ليلة فعن له الشعر فقال:

متاريك أذباب الأمور إذا اعترت ... أخذنا الفروع واجتثثنا أصولها

ثم أجبل فلم يجد شيئاً (انقطع)، فقالت له بنته: كأنك قد أجبلت يا أبه؟! قال: أجل، قالت: فهل لك أن أجيز عنك؟ قال: وهل عندك ذلك؟ قالت: نعم، قال: فافعلى، قالت:

مقاويل بالمعروف خرس من الخنا　　　كرام يعاطون العشيرة سولهـا

فحمى الشيخ فقال:

وقافية مثل السـنان رزئتهـا　　　تناولت من جو السماء نزولها

فقالت:

يراها الذى لا ينطق الشعر عنـده　　　ويعجز عن أمثالها أن تقولهـا

فقال حسان: لا أقول بيت شعر وأنت حية، قالت: أو أومنك؟ قال: وتفعلين؟ قالت: نعم، لا أقول بيت شعر مادمت حيا. (٨٨)

هذه من نوادر المبارزات الشعرية لا بين شاعر وشاعر، ولا حتى بين شاعر وابنه، بل بين شاعر فحل وابنته التى فوجىء بشاعريتها تجيز عنه وتستعديه وتسخنه وتجاريه حتى توقف هو مذهولاً وعزم ألا يقول الشعر مادامت حية، لأنها بزته وهى الابنة المرأة.. لكن البنت «بنت حلال» بادرت بالتوقف هى عن الشعر مادام حيا هو.. وقد ظل حيا مائة وعشرين عاماً، ووئدت هى فى مهدها.. وربما كان من مثيلاتها الكثيرات.. ولو كانت رجلاً ما رأى أبوها غضاضة فى نبوغها.. فهل رأى زهير بن أبى سلمى غضاضة فى شاعرية ابنه كعب بن زهير؟!

لماذا آثرت ابنة حسان - التى لم يذكر قتيبة اسمها - أن تتوقف هى لتترك الساحة لأبيها؟! ألم يكن بوسعها أن تواصل النحت الشعرى؟! الشعر حينذاك كان وسيلة الارتزاق والتقوت لحسان ولأكثر الشعراء فامتناع الشاعر يعنى إحالته إلى التقاعد بمصطلحاتنا الحديثة، لكنه تقاعد بدون معاش ولا دخل آخر، وسيفقد مركزه المعنوى أيضاً فى قومه.. وكان الإسلام سيخسر أحد ألسنته الحداد فى الدفاع عن الحق والنبوة والجادة.. وبصمت ابنة حسان لن يضيع منها غير الشعر فقط!!!

والفارعة بنت طريف التى ورد لها هنا رثاء فى أخيها الوليد بن طريف: (ذكرت الوليد وأيامه..) ترد فى الأغانى باسم ليلى بنت طريف، ويورد لها موقفاً من الشجاعة (فلما وقع فيهم السيف وأخذ رأس الوليد، صبحتهم ليلى بنت طريف مستعدة عليها الدرع

والجوشن، فجعلت تحمل على الناس، فعرفت، فقال يزيد: دعوها، ثم خرج إليها فضرب بالرمح قطاة فرسها (عجزها أو مقعد الرديف منها) ثم قال: اغربى غرب الله عليك! فقد فضحت العشيرة، فاستحيت وانصرفت) (٨٩)

وهى تردد أبياتاً ترثى أخاها.. كأن هذا هو المقدر عليها: الرثاء لا القتال، وعلى الرغم من أنها كانت مشروع مقاتلة أو فارسة، فإنها منعت وأحرجت كما منعت ابنة حسان من الشعر!!

وغير الرثاءات المذكورات، وكذلك عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل زوجة الفاروق التى رثته، وكذلك سكينة بنت الحسين التى رثت زوجها مصعباً وصفية بنت عبدالمطلب تواصل عطاء المرأة الشاعرة فى فنون أخرى.. فهذه (ليلى الأخيلية بنت عبدالله بن كعب بن حذيفة، وسميت الأخيلية بقولها ويقال بقول جدها كعب بن حذيفة:

نحن الأخايل ما يزال غلامنا ... حتي يدب علي العصا مذكوراً
تبكى الرماح إذا فقدن أكفنا ... جزعاً وتعلمنا الرقاق نحورا
والسيف يعلم أننا إخوانه ... حران إذ يلقي العظام بتوراً
ولنحن أوثق فى صدور نسائكم ... منكم إذا بكر الصراخ بكورا (٩١)

تفخر، وقليل هو فخر النساء شعرا، قد تفخر المرأة على جاراتها وصويحباتها فى العمل والنادى والبيت وفى المآتم والأفراح، بحليها وحذائها وشعرها وساقيها، لكنها لا تفخر - فناً - بفروسية أهلها وإقدامهم.. ويريد الرواة أن يشككوا فى نسبة أبيات الفخر هذه لليلى التى حملت صفة (الأخيلية) لقولها إياها، فيقال إنها لجدها.. فإذا كان جدها قائلها فلم لم يسم هو (الأخيلى)؟! اعتياد المجتمع بطرائق فخر المرأة وأنماطها - كما أوردتها - هو دافع التشكيك، والرغبة فى تجريد المرأة من بعض ما تملك من نبوغ.

ولم يجرد الرواة ولا شككوا فى كثير مما قالت ليلى، لأنها واصلت رحلة الشعر وصمدت لها فذاع اسمها.. ولذا نسبوا إليها هذين البيتين الناصعين:

(ومخرق عنه القميص تخاله وسط البيوت من الحياء سقيما
حتى إذا رفع اللواء رأيته تحت اللواء على الخميس زعيما) (٩٢)

وتستطيع ليلى أن تمدح كما يمدح الشعراء، وتنال الهبات والعطايا عن مديحها، وقد قيل إنها دخلت على الحجاج فأنشدته:

إذا ورد الحجاج أرضا مريضة تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذى بها غلام إذا هز القناة سقاها

فقال لها: لا تقولى: غلام، ولكن قولى: همام. ثم قال: أى النساء أحب إليك أنزلك عندها؟ قالت: ومن نساؤك أيها الأمير؟ قال: أم الجلاس بنت سعيد بن العاص الأموية، وهند بنت أسماء بن خارجة الفزارية، وهند بنت المهلب بن أبى صفرة العتكية. قالت: القيسية - تريد هند بنت أسماء. وإنما اختارتها لأنها ابنة عمها - أحب إليَّ. فلما كان الغد دخلت عليه. قال: ياغلام، أعطها خمسمائة. قالت: أيها الأمير، أحسبها أدما - البيض من الإبل وهى أكرمها - قال قائل: إنما أمر لك بشاء. قالت: الأمير أكرم من ذلك. فجعلها إبلاً إناثاً على استحياء، وإنما كان أمر لها بشاء أولاً. (٩٣)

وحديث ليلى يطول فى علاقتها بتوبة الحميرى، ورثائها ومديحها وشتى فنون الشعر التى تعرضت لها.. وكانت تسأل فتعطى، وتستمنح فتمنح.. أما علية بنت المهدى فقد كانت أميرة من بيت خلافة.. تقول الشعر لذاته وذاتها.. وكانت علية لطيفة المعنى، رقيقة الشعر، حسنة مجارى الكلام، ولها ألحان حسان، وعلقت بغلام اسمه «رشأ» وفيه تقول:

أضحى الفؤاد بزينبا صبا كئيباً متعبا
فجعلت زينب سترة وكتمت أمرا معجبا

- قولها: بزينب، تريد برشأ - فنمى الأمر إلى أخيها الرشيد فأبعده، وقيل قتله، وعلقت بعده بغلام اسمه «طل» فقال لها الرشيد: والله لئن ذكرته لأقتلنك! فدخل عليها يوماً على حين غفلة وهى تقرأ: فإن لم يصبها وابل، فما نهى عنه أمير

المؤمنين، فضحك وقال: ولا كل هذا. وهى القائلة:

ياعاذلـى قد كنـت قبلـك عاذلاً	حتى ابتليت فصرت حبا ذاهــلاً
الحـــب أول ما يكـــون مجانــة	فإذا تحكم صـــار شـغلاً شـاغلاً
أرضى فيغضب قاتلى فتعجبـــوا	يرضى القتيل ولا يرضى القاتلا

وهى القائلة:

وضع الحـــب علـى الجـــور فلـو	أنصــف المعشـــوق فـــيه لســـمج
وقليل الحـب صرفـــا خالصـــا	لك خيـــر من كثـــير قـد مـــزج
ليس يستحسن فى نعت الهـــوى	عاشق يحسن تأليف الحجج (٩٤)

هى امرأة ناعمة، لا تعرف من الحياة إلا رغدها، ومن العيش إلا أعذبه.. فماذا ترى هى فاعلة؟ إنه الحب الذى يخـضع له المال والسلطان.. ولم تعشق أميراً أو ملـكاً.. إنه مجرد «رشأ» و«طل» غلامـان عبدان من الأعاجم.. ولم يحرمهـا الخليفة من عشقـها - على ما يبدو من الحكاية - إنما منعها من البوح به شعراً.. فـقد كان للخليفة أن يعشق وأن يتسرى - حلالاً طيباً - جارية وألف جارية!! وهى امـرأة مطيعة لأخـيها وتوقن تقاليـد العرب التى تمج التصريـح باسم المحبوب، وإن لم تمنع الحب.. فامتـثلت لأمر أخيهـا بعدم ذكر «طل» امتثالاً أعـمى.. وحينما قرأت الآية: (فإن لم يصبها وابـل فطل مع نفسها لم تنطق (فطل)!! وهو درجة من درجات المطر، ولو نطقت بها ما قتلها هارون الرشيد وما حنث فى قسمه.

وعلية تجسـيد لحياة امرأة القصـور فى العصر العباسى، ثريات، جمـيلات، يعشن حـياة الفـراغ، ويختلطن بالمـوالى من المسلمين وغيـرهم وربما تنتـمى بعضـهن إلى هؤلاء الموالى بعض الانتـماء، فـقد كانـت أم علية (جاريـة مغنية اسـمهـا مكنونة، اشتـراها المهدى فى حيـاة أبيه بمائة ألف درهم، فولـدت له علية التى تعرف أحـياناً باسم العبـاسة) (٩٥) فكان انشغـال هذه الطبقة العاليـة بالشعر والموسـيقى والغناء

والرقص، كما تنشغل نساء الطبقة العالية فى زمننا هذا بتبادل الأزواج والعشاق!! فأى الطبقتين خير؟! كلاهما خير إن شاء الله!!!

ومع العشق والغزل واللهو المباح والشرب كانت مكائد النساء غير بعيدة عن علية ومثيلاتها، وقد (هجت جارية اسمها «طغيان» لوشاية قامت بها تجاه من تحب، فقالت فيها أبيات ثلاثة من أشنع ما تهجى به امرأة، نذكر منها اثنين فقط ونمسك عن الثالث:

لطغيان خف مذ ثلاثين حجة ... جديد فلا يبلى ولا يتحرق

وكيف بلى خف هو الدهر كله ... على قدميها فى الهواء معلق (٩٦)

لا تتحدث علية عن فقر طغيان ولا بخلها الذى جعلها تحتفظ بخفها - أى حذائها - ثلاثين سنة جديداً، بل تذكر أن المرأة لا تستهلك خفها، ولم تطأ به الأرض أبداً، لأنها ترفع ساقيها لأعلى على مدى ثلاثين عاماً.. وعليك أنت أن تحصى كم رجلاً وطئها طوال ثلاثة عقود؟! إنها لا تأكل ولا تشرب ولا تخطو بل توطأ فقط!!!

وليس من شك فى أن شعر المرأة صورة لحياتها: رفاهة وقسوة.. فمن المنتظر من علية بنت المهدى أن تتغزل، ويحركها الهوى إلى غزل الشعر وهجائه أيضاً.. ومن المنتظر كذلك من الفارعة بنت طريف الشيبانية أن تفخر بأخيها البطل الذى قتله يزيد بن مزيد الشيبانى قائد هارون الرشيد، بعد أن خرج عليه الوليد أخو الفارعة - والبعض يسميها ليلى وفاطمة - ولم يحمل رثاؤها معانى الذلة والمسكنة بل القوة فى المعنى والمبنى.. قوة نابعة من شخصيتها نفسها كمقاتلة خاضت المعارك بنفسها (٩٧).. سواء انتصرت أو انهزمت، يكفيها أن تغلبت على أنوثتها، وأخفتها تحت ملابس الفرسان!!

الحفيــــــدات

الحفيدات

المتتبع لخلجات القصائد النسائية من جداتنا هؤلاء يلمح الرجل ظلاً ظليلاً أحياناً، وشمسا حارقة أحياناً، وأحيانا أخرى -بل أكثر الأحيان- لا ظل ولا شمس له.. فالمرأة قد تعشق الرجل على استحياء وتكنى عنه بدون تصريح، وتعبيرها عن العشق تهويم فى ذاتها هى وصبابتها.. وغير هذا الغرض من أغراض الشعر -المشغول بالرجل بعض الانشغال- تبدع المرأة شعرها فى الرثاء والمديح وربما الهجاء والوصف.. وفى كل حال- حتى لدى ولادة بنت المستكفى- لا تسعى القصيدة النسائية لاستقصاء طبائع الذكورة أو الطرف الآخر فى الحياة، ولذا تبدو نصيحة المرأة البدوية الجاهلية لابنتها فى يوم عرسها نادرة من النوادر لعمق فهمها لحيثيات النفس الرجالية، وخاصة الزوج.. أما شعر جداتنا هذا فلم يطرح السؤال الذى يطرحه الرجل دائماً بتراثه الشعرى والنثرى وحاضره أيضا، ما هى المرأة؟ أهى الخير أم الشر، الغضب أم الرضا، الجنة أم الجحيم؟!

حديثا فى زمننا هذا تجرأت المرأة الشاعرة على طرح هذا التساؤل، وعلى النبش فى طبيعة الرجل التى قد تبدو شائهة أو سوية، طيعة أو عنيدة، مستسلمة أو

متمردة.. المرأة الشاعرة فى عصرنا الحديث اتسعت مداركها وبدأت تناطح الرجل فى اهتماماته الفكرية لا الإنسانية فقط.

هذه هى جليلة رضا تخاطب هذا الكائن الآخر فى خمسينيات القرن الماضى (٩٨) فى قصيدة (من المرأة إلى الرجل) تقول:

ماذا تريد؟ ماذا تريد؟ يا أيها الرجل العنيد
يا أيها الرجل الذى لن يستفيد ولن يفيد
إنى أراك مع الزمان حملت لى حقداً حقود
تمضى السنون وأنت أنت تريد تجهل ما تريد
أغرتك «سيكلوجيتى» فمضيت تبحث. لا تحيد
عنى.. وعن نفسيتى، عن كنه سرى فى الوجود
وكأننى شىء غريب نادر.. شىء فريد..!
فهناك بين الكأس والأصحاب فى المقهى البعيد
وهناك تحت شجيرة الجميز فى الحقل المديد
وهناك حتى فى الخنادق حيث يحتشد الجنود
لا شىء إلا سيرتى تلهو بها وقتاً سعيد
لا شىء غيرى يستفزك أن تقول وأن تعيد
ماذا تريد؟ ماذا تريد؟
إنى إذا أحصيت ما قد قلت عنى لن أجيد
صورتنى عربيدة حيناً وشيطاناً مريد
ونسبت كل الحادثات إلىَّ من زمن بعيد
فأنا السفالة والنذالة والخيانة والجحود

وأنـا أنـا حـــواء أغـــرت آدم الغـــر الطريـــد
وأنا الذى جننت قيس فطـــاف من بيـــد لبيـــد
وأنا التـــى أكلـــت ذراع طليقـــها حتى يعـــود
وأنا التى ســـببت قتل عشيرتـــين من الصعـــيد
وأنا التى وضعت لضرتهـا ســـموما فى الثريـــد
ولقد أكون أنا التى اشـــعلت نـــارك بورسعيد!
ماذا تريد؟ ماذا تريد؟
أنا كل شـىء فى حياتـــك إنـــنى شـــىء مجيـــد
البيـــت دونى كالردى والكـــون كالقبـــر المديـــد
والصبر دينى والحنان شريعتى والعطـــف جـــود
وأنا بكـــل كيانى المهـــزول كالبطـــل النجيـــد
أتحـــمل الآلام والأمـــراض فى عـــزم شـــديد
ولقد تخـــزك إبرة فتـــئن كالطفـــل الوليـــد
وتكح، تعطس فى الشتاء كأن جسمك من جليـد
وأنا بفســـتانى القصـــير وبالســـواعد والزنـــود
من أى ضعه جئت منـك فإن ضلعـك كالجريـــد!

ولا نتوقـف عند نقاط الخـور فى بنية القـصيـدة، سواء على مـستوى المـفردات كلفظة «سيكلوجيـتى» أو مستوى التركيب الذى يهبط بالجـملة الشعرية أحنا إلى حد الابتذال العـامى كقولها (وأنا التى أكـلـت ذراع طليقها حتـى يعود) وكذلك (أنا التى وضعت لضرتـها سموما فى الثـريد) وما شابههمـا من معان تدور على ألسنة العامة ولم تحورها إلا قليلا.. وكذلك لا نفتش عن جمال السياق فى بعض

المواقع كقولها (البيت دونى كالردى والكون كالبقر المديد).. إن ما يشغلنا هنا هذه الوقفة الحاسمة من الرجل وتفنيد دعاواه عن المرأة ككائن شرير، ولم يذكر أنه الضعيف كذبابة أمام «شكة دبوس» أو عطسة برد.. وفى كل حال هو أصلها فلو صلح الأصل لاستقام الفرع!!

وحتى إذا كان قاسياً عنيفاً، وهى ضعيفة طرية رقيقة، فقوتها فى ضعفها، وضعفه فى قوته..

أنت قاس: (٩٩)

غير أنى أعشق القسوة فى قلب الرجال
إنها توقف من حد غرورى وضلالى
إنها أبعد شىء أنا أخشى منك يوما
وهى «مغناطيس» حبى إن سئمت الحب دوما
وهى إحساس لذيذ حالم يغرى خيالى..
تتحدانى أنا؟ وى! وكيف يا قلب احتمالى؟
أين دمعى وأنينى وأفانين دلالى!
تتحدانى؟ وما قيمة ضعفى إن هزمت
وهو فى الحب سلاحى وبه صلت وجلت
وهو درعى وجيوشى ومعدات قتالى..!

ومجمل الأمر أن الرجال فى نظر رائدة من رائدات الشعر العربى الحديث، مجرد ألعوبة ضخمة الهيكل مهولة الشكل، لكن مفتاح تحريكها والقبض عليها صغير ضئيل، وكامن فى جيب ضعف المرأة!!

كيف ترى شاعرة أخرى من جيل جليلة رضا هذا الرجل؟! تبدو روحية القلينى متوازنة فى رؤيتها وخاصة فى ديوانها (أنغام حالمة) (١٠٠) الذى ضم

نبضات قلبها الشاعر الدفاق بالحب للرجل بشتى حالاته، وبدت أغلب هذه الحالات إقبالاً عليه.. لكن الشك يتسلل إليها وترتاب فيه، وهو جدير بكل ريبة!! لكنها لا تصرح بريبتها هذه مباشرة، بل عبر تساؤلات فنية وطرائق محبوكة فى البناء الشعرى تتسم به روحية القلينى بعامة.. تقول فى قصيدة (أتحبنى حقا؟):

أتحبنى حقا وتصدق فى هواك وفى وفاك؟
وتود لو أقضى الحياة كما تحب على رباك؟
وتغار لو حدثت فى ود وفى همس سواك؟
وبرغم أشواق الحسان الفاتنات إلى لقاك..
تشتاقنى ويضمنى فى لهفة حيرى هواك؟
وتقول لى وإلىَّ تهفو فى حنين مقلتاك
لم أهو غيرك كل ما أبغيه فى الدنيا رضاك
أتحبنى حقا؟
أتحبنى حقا وهل صدقت عيونك فى الكلام
كالشهد تسكب فى فمى حلواً كأنغام الغرام؟
ويطول ليلك ساهراً إن طال هجرى والخصام
تمضى بلا هدف، بلا أمل وتخبط فى الظلام
وتقول قد نسيت هواى وحرمت عينى المنام
وأنا على حالى على عهد الهوى أرعى الزمام
وبرغم ظلمك لى وهجرك لى أحبك فى هيام
أتحبنى حقا؟

أتحبنـي أم ذاك من نسـج التوهـم والخـيال
أحيا على الألوان سـاحرة المفاتـن والظـلال
وأقول رافعة الجبـين آتـية نـشوى فى دلال
لم يهو غيرى فى الحياة ولا يرى أخرى مثالـى
أنا وحيه أنـا حبه أنا سـر أحـلام اللـيالى
أنا عنده كـل الحيـاة بغـير حبـى لا يبالـى
يا قلب هذا ما يقول لى الحبيب فهل يغالـى؟

روحيـة لا تواجهـه بصفـعة.. ولا حتى شدة أذن.. وهو تشكيـك هامس فيـما يدعى، وتساؤلاتى حـول خيوط من الخداع ربما ينسـجها حول قلبهـا.. وحتى مع إدراكهـا الخـفى لمثـل هذا الكذب والخـداع المحتـمل، فـهـى لا تتـحـدث إليـه بهواجسها، بل تخاطب قلبها فى ختام القصيدة.

هكذا يتـدرج موقـف المرأة الشاعـرة من الرجل على مـدى عـدة قرون: كـانت منحازة له كل إنحياز، فهى نادبته شعراً، أو راثية له فى القتل والوفاة، وهى مادحة له: أخا وحـاكما وأبـا وزوجا.. ثم اتجهت إلى الفـضفضـة فى عصـرنا الحديث، وإلى الإعراب عن الملل من وطأته وطبـاعه واتهامـاته لها.. وبدا ذلك كله -على لسان جليـلة وروحية- بغـير عدوانـية ولا فجـاجة.. وكأنهـا تقدم رجـلاً وتؤخر أخرى.

كـيف عـبـرت إذن بنات هذا الزمـن من الشـاعـرات الجـديدات عن رؤيتـهن للرجال، هل خطون خطوة أخرى للمواجهة؟!

قبل الإمـساك بخـيوط إجـابة ما نشيـر إلى أننا لا نجرى اسـتطلاع رأى فى هذا الشأن. ولا نستقصى كل ما كتب الشواعر عن الرجل ومواجهتهن له.. إنما اخترنا جليلة رضا وروحية القلينى نموذجين من شـاعرات الريادة فى النصف الأخير من

القرن الماضى.. ونقتطف كذلك رؤية شاعرات شابات كهالة فهمى، ود.نجوى عمر حول موضوع الحديث.. وبين هذين الجيلين من الشاعرات أسماء عدة قد لا تحصرها الذاكرة: فدوى طوقان ونازك الملائكة ونور نافع وعلية الجعار وملك عبدالعزيز وزينب أبوالنجا وشيرين العدوى وشريفة السيد ود.عزة بدر وسناء الجبالى وأمل جمال وعفت بركات وهن ينتمين لمذاهب وأجيال شتى.

لا نحصر كل ما قلن، وإنما شئنا أن نضع رؤى نسائية عدة أمام رأى واحد يصوغ هذا الكتاب وهو رأيى.. فمنذ أول كلمة لآخر كلمة- مع محاولتى حمل عصاة الموضوعية والحياد- أتحدث عن المرأة وأنا من عالم آخر لم تعشه ولن تعيشه أبدا.. فى قصيدة لها بعنوان: (إخلاص) تقول هالة فهمى:

فعلا..
أنت تحب كثيراً جداً
تخلص لى
إخلاصك للسيقان إذا اندلقت فى الطرقات
تتلألأ كالضوء على صفحة ماء
تخلص لى..
إخلاصك للأرداف المهتزة
زلزلة فوق الأرض
وزلزلة فى عينيك
وزلزلة فى قلبك
تخلص لى..
وخصوصاً حين تطل إليك

نهود الحسناوات

تفر إليك بلا مقود

تخلص لى

وكذلك أخلص مثلك!!

الموقف من الرجل العاشق هنا مكشوف ومضيء.. ساقته الشاعرة بسخرية عالية.. لم تخطب وتعظ وتنهه عن الفحشاء والمنكر.. بل أوردت وقائع هذه الفحشاء والمنكر: سيقان مندلقة فى الطرقات، وأرداف زلزلية- ٨ درجات بمقياس ريختر!! ونهود حرة جداً وتدعو إلى تدمير القيود النسيجية «المقلوظة» دعوة عملية!! وهو إزاء كل هذا ليس له إلا أن يخلص:: للنهود، للأرداف، للسيقان ويخلص لهذه: المحبة مثل هذا الإخلاص المنفى أصلا وفرعا.. لأنه ليس نهداً واحداً ولا ساقاً واحدة.. إنها بحر من السيقان ونهر من النهود المندلقة المضيئة فى كل درب.. وهو موزع الإخلاص عليها جميعاً..

لم تقرعه الشاعرة ولاوبخته ولا حتى شدت أذنه وهددته بالمقاطعة والبين، بل كل ما هنالك أنها ستخلص له هذا النوع من الإخلاص الذى يجيده، ويدعيه لها!! التهديد هنا غير التنفيذ.. فلو كانت قد انصرفت عنه فعلا ما انشغلت به، ولا حاصرته كل هذا الحصار الفاضح لطبيعته المتقلبة النهمة الجشعة إلى الجمال المضيء والفتنة اللاذعة.. أعانه الله!!

القصيدة ليست طريفة فى مجالها فقط، بل سهلة متبسطة فى جملها ومفرداتها ومفارقتها التى تختم بها.. ورغم كل هذا فهى مدهشة دهشة الفن الأصيل العذب.. كل هذا رغم ندرة ما تكتب هالة فهمى من الشعر.. وربما كانت محاولة التجويد أو الصياغة التلقائية هذه دافعاً للقلة.

وليس يقل طرافة عن هذه القصيدة ما صاغته الشاعرة بعنوان: (بصباص) وعليك أن تتأمل العنوان وحده وكل ما يحمل من شحنة نفسية وشعبية موروثة.. أما سطور القصيدة نفسها. وهى من ديوان (إلا إليك) أيضا فهى توحى بحكاية

سبقت صياغتها: خطاب موجه من المرأة إلى الرجل بشأن امرأة أخرى يتعهد بعدم الاقتراب منها مطلقاً مطلقاً مطلقاً.. وهى تصدق على تعهده هذا قائلة:

لن تقر بها..
لن تتمسح فى ظل يديها
فى أضواء الشفتين الساطعة
بلا حد
فى أبعاد النهدين
الطيارين
المنطلقين بلا قيد
لن تقربها: قولاً أو فعلاً
أو همساً أو حرفاً
ذاك لأنك تعشقنى
وتقدس أحلامى فيك
هيامى «بشقاوة» عينيك
ولمس شفاهك فوق بنان يدى
لن تقربها: قولاً أو فعلاً
أو همساً أو حرفاً
بل تقربها فى الظلمة وحدك
ذئبا يفترس برغبة من يفترسه
يا بصباص.. الكذب صناعتك الكبرى..
يا بصباص!!

لا يقولن أحد إن الشاعرة: المرأة تقهر الرجل قهراً، وتشبعه اتهامات وهو ساكت.. فالسكوت هنا سكوت صاخب: يتحدث ويبرر ويدافع عن نفسه - بالباطل طبعاً- وأخيراً تؤمن الشاعرة على مقولاته التى توقن بكذبها وتفضحه أخيراً فى آخر سطرين.. هو ذئب مفترس «يتسحب» حتى يلتهم الفريسة.. وربما كان وصم الرجل المغرم بالنساء بأنه ذئب تقليداً قديماً.. لكن سياق القصيدة هنا أضفى عليه الحدة، وكذلك تواطؤ الفريسة مع المفترس.. فتتداخل ثلاثة شخوص خلف التجربة الشعرية:

المتحدثة، والمتهم البصباص، والمرأة الأخرى التى تغريه وتشده إليها بخيوطها الأنثوية الشفافة الحادة ومكوناتها «الطرية» وسبحان من خلق الفتنة والفاتنات!!

الحفيدة الثانية للخنساء وصويحباتها الدكتورة نجوى عمر، وهى فى عمر هالة فهمى تماماً، لكنها لم تعرف إلا شاعرة، وناقدة أحياناً، ومدرسا بالجامعة دائما.. والعلاقة بين الرجل والمرأة الشاعرة لديها لا تقوم علىَ العاطفة.. إنها تتخذ أبعاداً تاريخية وإنسانية واجتماعية فى قصيدة (السوق قائمة) على وجه التحديد (١٠٣).

فالرجل مجرد نخاس، تجارته النساء بشتى صنوفها: بيضاء وسمراء وصفراء.. وقد يطور أشكال نخاسته وينقلها إلى من يرثه، ولغرابة ما يفعل أن النخاس الرجل يتحول إلى نخاسة أنثى ونخاسات كثيرات، كلهن يبعن أنفسهن، واختفاء الصورة القديمة للنخاس تعنى أن كل الرجال أصبحوا نخاسين ومازالت تجارة النساء مفتوحة، بدلاً من الدينار، أصبحت بالكلمات، وحتى الكلمات نفسها ضن بها المشترى: الرجل، فأصبحت المرأة تبيع نفسها بنظرة: نظرة فقط!!

ويرن بجرس فى يده، ويصيح النخاس: هلموا

يا سادة ما عندى اليوم لم تنظر عين مثلهمو

فهنا غلمان وجوار من قلب جبال القوقاز

أقبل ســـيد ولتنظـــر.. بيضـــاء مهفهفـــة القـــد
وعيون نجــلاء.. غدائر ســـوداء انحلــت من قيـــد
وتسـاوى مائتـــى دينـــار.. من قال ثلاثـــاً فليبـــدأ
مائتين وعشراً.. لا بل مائـــتين وعشـــرين.. وثلاثيـــن
من منكم سيزيد قليـلاً.. مائتـــين وخمـــسين.. هنيـئا!
روحـى يا جارية لســيدك.. أمتثـلت للأمــر وســـارت
أما هذى.. سوداء.. نعم.. لكن ذات غناء يسبى، ترقص..
تشـــــدو.. تعـــزف.. بل تنظـــم أشـــعاراً
هيا يا جارية تغنى.. لحظـات يا سادة تكتـشفوا الأخـبار
وانفـــض الســـوق، وعـــاد النخـــاس كليـــلاً
ويولى، ويلـــيه الســـلطان ووزراء القصـــر رحـــيلاً
السوق ترى من يعمـرها؟ من يفتتـح البيـــع؟ وكـــيف؟
اتفق رجـــال ونســـاء أن تصبـــح ســـوقاً مفتوحـة
قال النخاس قبيل الموت لنا سراً:
يوماً سـأموت، فمـــاذا تفعلـــن تراكـــن؟
استـــمعى يا جاريـــــة النصـــــح..
تعرضن هنـــاك بأنفســكن بضاعتكـــن..
اتفق رجال ورجال: لن ندفـــع فيهـــن كثيـــراً
لن ندفـــــع غيـــــــر كليمـــــات!!
اتفق نساء ونساء: لن نطلب منهم ديناراً أو دينارين
بل يكفـــــى بعـــــض النظـــرات!!

تجارة الرجل فى النساء إذن بتواطؤ من المرأة نفسها.. ورغم وصم الرجل بأحقر الطباع -كنخاس- فيشفع له أن المرأة إذا لم تجده باعت نفسها بنفسها!! وإذا كان يقبض هو فيها دنانير، وإذا كان بعض الرجال -كالشعراء مثلا- يشترونها أو يمتلكونها بكليمات، فإنها خففت حتى من هذا العبء عنه ورأت بعض النسوة أن النظرة وحدها تكفى لتبيع نفسها!!

نجوى عمر تدين كل رجل، وبعض النساء، وجميع المجتمع وتقاليده القائمة على استعباد المرأة، وتطوير طرائق الاستعباد وأشكاله طبقاً لتطور المجتمع نفسه من المادى: الدينار، للمعنوى: الكلمات، للهلامى: النظرات!!!

فهل يمكن أن نفض الاشتباك بين الرجل والمرأة الشاعرة؟! ربما كانت أبيات جليلة رضا حاسمة فى هذا الحكم:

فلو استطعت على الخدود لطمته

ثم أنثنيت بقبلتين على الفم

ولو استطعت سخرت منه، شتمته

وبكيت فوق خطاه كالمتندم

يا أنت.. لا تغتر.. لست ملومة

أهواك حب الأم لابن مجرم!!

يوليو ٢٠٠٢

هوامش

حريم لماذا؟

١- مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط - جـ١ - ط٣ - ص١٧٥ - ص١٧٦

٢- جورج بوزنر وآخرون: معجم الحضارة المصرية القديمة - ط هيئة الكتاب عام ١٩٩٦ - ترجمة أمين سلامة - ص١٣٥ - ص١٣٦

٣- ول ديورانت: قصة الحضارة ـ ط عام ١٩٧١ لجنة التأليف والترجمة والنشر مع جامعة الدول العربية - ترجمة محمد بدران - الجزء الثانى - ص٣١

أصناف

٤- جورج بوزنر وآخرون: معجم الحضارة المصرية القديمة - ط هيئة الكتاب عام ١٩٩٦ - ترجمة أمين سلامة - ص١٠١

٥- انظر المعجم الوجيز لمجمع اللغة العربية - ط ١٩٩٢ - مادة عذر - ص٤١١ وغيره من المعاجم.

٦- حكاية تراثية مشهورة.. وانظر: عبدالأمير على مهنا: طرائف من التراث العربى - ط٢ دار الفكر اللبنانى عام ١٩٩٢ - ص٣٤٠

٧- معجم الحضارة المصرية القديمة - ص١٨٤

٨- ول ديورانت: قصة الحضارة - ط ١٩٧١ مطبعة الدجوى - مجلد١ - جـ٢ - ص٩٨

٩- معجم الحضارة المصرية القديمة - ص١٨٣

١٠- نفس المصدر - ص١٨٤

١١- نفس المصدر - ص١٨٤

١٢- نفس المصدر - ص٣١٦ - ٣١٧

١٣- يوسف الشاروني: أخبار الصين والهند لسليمان التاجر وأبى زيد حسن السيرافى - ص٥٥

١٤- جورج بوزنر وسيرج سونرون وجان يويوت و ا.ا.س. إدواردز و ف.ل ليونيه وجان دوريس: معجم الحضارة المصرية القديمة - ترجمة أمين سلامة - مراجعة د.سيد توفيق - ط ١٩٩٦ هيئة الكتاب - ص٩٦

١٥- أبوعمر بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين - ط٢ دار الجبل ودار الفكر - بدون تاريخ - تحقيق عبدالسلام هارون - جـ١ - ص١٠٩

١٦- نفس المصدر - ص١٠٩

١٧- ابن قتيبة الدينورى: الشعر والشعراء - تحقيق أحمد محمد شاكر - ط دار المعارف - جـ٢ - ص٧١١

١٨- عايدة الشريف: محمود محمد شاكر «قصة قلم» - كتاب الهلال - نوفمبر ١٩٩٧ - العدد ٥٦٣ - ص١٤٧

١٩- نفس المصدر - ص١٤٨

٢٠- ابن قتيبة: الشعر والشعراء - ط دار المعارف - جـ٢ - ص٦٧٦

٢١- المصدر نفسه - جـ٢ - ص٦٧٢ - ص٦٧٣

٢٢- المصدر نفسه - جـ٢ - ص٦٢٧
٢٣- د.زكى مبارك: النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى - ط دار الكاتب العربى - جـ١ - ص١٨٤
٢٤- د.يوسف خليفة: الحب المثالى عند العرب - ط هيئة الكتاب عام ١٩٩٨ - مكتبة الأسرة - ص٦٠
٢٥- دائرة معارف الشعب - كتاب الشعب العدد ٦٤ - ط دار الشعب - ص٢٠٢
٢٦- يوسف الشارونى: أخبار الصين والهند لسليمان التاجر وأبى زيد حسن السيرافى - ص٦٦ - ص٦٧
٢٧- ابن عبدربه: العقد الفريد - جـ١ - ص٢٦٠ - ص٢٦١
٢٨- معجم الحضارة المصرية القديمة - ط ٢ هيئة الكتاب فى مهرجان القراءة للجميع - عام ١٩٩٦ - ص١٥٦
٢٩- الجاحظ: البيان والتبيين - جـ١ - ص١٩٣
٣٠- المعجم الوسيط - الجزء الأول - الطبعة الثالثة - ص٥٥٨
٣١- سورة النساء - الآية ٣٤

محرضات.. على المصائب

٣٢- كرم الأبنودى - فن الحزن - ط هيئة قصور الثقافة - سلسلة مكتبة الدراسات الشعبية - عام ١٩٩٦ - ص٢٠
٣٣- المصدر نفسه - ص٣٠ - ص٣١
٣٤- أبوعمرو بن بحر الجاحظ البيان والتبيين - جـ١ - ص٢٤٩.. وفى

الهامش: ربيعة بن مكدم بن عامر أحد فرسان مضر المعدودين، وشجعانهم المشهورين.

حكيمات

٣٥- د.محمد بدر المعبدى: أدب النساء فى الجاهلية والإسلام: النشر - ص٥٨

٣٦- المصدر نفسه - ص٨٧

٣٧ - أبوعمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين - جـ١ - ص٣١٢ - ص٣١٣

٣٨- محمد بدر المعبدى: أدب النساء فى الجاهلية والإسلام - ص٦٠ - ص٦٣ - عن مجمع الأمثال للميدانى١:٩١

٣٩- المصدر نفسه - جـ١ - ص٣٢٤ - ص٣٢٥

٤٠- أبوالفرج عبدالرحمن بن الجوزى: أخبار الظراف والمتماجنين - ط دار الفكر اللبنانى عام ١٩٩٠ - شرح عبدالأمير مهنا - ص١٦٨.. والمازنى: هو بكر ابن محمد بن حبيب. إمام فى النحو، له تصانيف. توفى فى سنة ٢٤٩هـ

٤١- ابن عبدربه: العقد الفريد - جـ١ - ص٢٥٦

٤٢- البيان والتبيين - تحقيق عبدالسلام محمد هارون - ط دار الجبل ودار الفكر - جـ١ - ص٥٦

٤٣- ابن عبدربه: العقد الفريد - جـ١ - ص١٢ - ص١٣

٤٤- المصدر نفسه - جـ١ - ص٥٩

٤٥ - عبدالأمير على مهنا: طرائف من التراث العربى - ط٢ دار الفكر

اللبنانى عام ١٩٩٢ - ص٣٤٠

٤٦- طاهر الطناحى: أطياف من حياة مى - كتاب الهلال عام ١٩٧٤ - ص٤٢ - ص٤٣

٤٧- سلامة موسى: تربية سلامة موسى - ص٣٤٧ - ص٣٤٨

٤٨- مريم جميلة أو مارجريت ماركوس: الإسلام فى مواجهة الغرب - ترجمة طارق السيد خاطر - ط المختار الإسلامى للنشر والتوزيع - ص١٤

بخيلات

٤٩- انظر كتابنا (مع الضاحكين) الصادر عن مكتب أوزوريس عام ١٩٩٥ وفيه حكايا جمة عن البخل والبخلاء.

٥٠- ابن عبدربه: العقد الفريد - جـ١ - ص٢٨٧ - ص٢٨٨

٥١- انظر العقد الفريد - جـ١ - ص٢٨٨ - ص٢٨٩

الكذب منهن وعليهن !!

٥٢- الجاحظ: البيان والتبيين - جـ٢ - ص٧١

٥٣- ديوان أحمد شوقى: ط دار العودة ببيروت - عام ١٩٨٨ - المجلد الأول - الجزء الثانى - ص١١٢

٥٤- أبوالفرج الأصفهانى: الأغانى - ط بيروت - جـ٧ - ص١١٤ - ص١١٥

٥٥- معجم الحضارة المصرية القديمة ص٣٢٧

٥٦- الجاحظ: البيان والتبيين - جـ١ - ص١٨٥

٥٧- سمير غريب: راية الخيال - ط٢ مكتبة الأسرة، هيئة الكتاب عام ٢٠٠٠ - ص٨٧

٥٨- الجاحظ: البيان والتبيين - جـ٢ - ص٩٥

مغنيات

٥٩- د.جمال الدين الرمادى: أدب وطرب - ط دار النهضة العربية - بدون تاريخ - ص٢٠٨

٦٠- كمال النجمى: تراث الغناء العربى بين الموصلى وزرياب وأم كلثوم وعبدالوهاب - ط هيئة الكتاب فى مكتبة الأسرة عام ١٩٩٨ - ص٦٠

٦١- جمال الدين الرمادى: أدب وطرب - ط دار النهضة العربية - بدون تاريخ - ص١٥١

٦٢- المصدر السابق - ص١٥١ - ص١٥٢

٦٣- كمال النجمى: تراث الغناء العربى - ص٧٨

٦٤- كمال النجمى: تراث الغناء العربى - ص٩٩

٦٥ - جمال الدين الرمادى: أدب وطرب - ص٢٠٧ - ص٢٠٨

٦٦- كمال النجمى: تراث الغناء العربى - ص٢٢٥ - ص٢٢٦

٦٧- كمال النجمى: تراث الغناء العربى - ص٧٦

شجاعات.. مقاتلات

٦٨- معجم الحضارة المصرية القديمة - ص١٨٩ - ص١٩٠

٦٩- ابن عبدربه: العقد الفريد - جـ١ - ص٩٧

٧٠- ابن عبدربه: العقد الفريد - جـ٢ - ص١١٣ - ص١١٥

٧١- ابن عبدربه: العقد الفريد - جـ٢ - ص١٠٤

٧٢- ابن عبدربه: العقد الفريد - جـ٢ - ص١٠٦ - ص١٠٨

٧٣ - الاعلام للزركلى - ط المطبعة العربية مصر - عام ١٩٦٣ - جـ٢ - ص٧٢٨

٧٤- انظر العقد الفريد جـ٢ - ص١٠٨ - ص١١٠

٧٥ - العقد الفريد - جـ١ - ص٢٨ - ص٢٩

٧٦- البيان والتبيين - جـ١ - ص٤٠١ ودمى، بضم الدال وكسر الميم وتشديد الياء: جمع دم. قال سيبويه: الدم أصله دمى على فعل بالتسكين لأنه يجمع على دماء ودمى، مثل ظبى وظباء وظبى.

٧٧- انظر د.النعمان القاضى فى (الفرق الإسلامية فى الشعر الأموى) ص٤٣٢ وقد أخذ عن الأغانى.

٧٨- انظر هامش البيان والتبيين للجاحظ - جـ٢ - ص٣٨

٧٩- الأعلام للزركلى - جـ٢ - ص٧٥٩

شاعرات

٨٠- خير الدين الزركلى: الأعلام ط المطبعة العربية بمصر - سنة ١٣٤٦هـ - ١٩٦٣م - جـ٢ - ص٧٢٧

٨١- الحصرى القيروانى: زهر الآداب - جـ١ - ص٤٦ - ص٤٧

٨٢- الحصرى القيروانى: زهر الآداب - جـ١ - ص٢٨ - ص٢٩. وفى هامش الكتاب أن مفرده «تعنق» هى نوع من السير، وبواكفها: الجارى..

ومعـرق: أصيل.. وأبوالفرج الأصـفهانى: جـ١ - ص٢٠ - ص٢١ - ط هيـئة الكتاب.

٨٣- د.يوسف خليف: حياة الشعر فى الكوفة إلى نهاية القرن الثانى الهجرى - ط دار الكاتـب العـربى عـام ١٩٦٨ - ص٣٦٢.. وفـى هامش الكتــاب أن الشاعـرة فى بعض المصادر هند الأنصارية بنت زيد بـن مخرمة أو ابن مـخربة.. وهى فى مـصادر أخرى ابنة حـجر وهى فى مـصادر غـيرها امـرأة مجهـولة من كندة.

٨٤-الجـاحـــظ: البيـــان والتبيـــن-جـــ١١٥٥- طـ٢ - ص١٨٠- تحـقـيق عبـد السلام هارون.. وقـد ذكر المحـقق أن الأبيات لهند بنت مـعبـد بن نضلة، ترثي عمرو بن مسعود وخالد بن نضلة.

٨٥- د.مصطفى الشكعـة: الشعر والشعـراء - ص٤٦١ - ص٤٦٤ ومراجع الشكعة هنا: الأغانى، ووفيات الأعيان، وحماسة البحترى، وشاعرات العرب.

٨٦- الجاحظ: البيان والتبيين - جـ١ - ص٢١٦ - ص٢١٧

٨٧- البيان والتبيين - جـ١ - ص١٨٣ - ص١٨٤

٨٨- ابن قتيبة الدينورى: الشـعر والشعراء - جـ١ - ص٣٠٧ ط دار المعارف - تحقيق أحمد شاكر.

٨٩- الأصفهانى: الأغانى - جـ١٢ - ص٨٨ - ط دار الثـقافة ببيروت - عام ١٩٥٨

٩٠- البيـان والتبيين - جـ٣ - ص٣٦٣. وانظر رثـاء عاتكة وسكينة فى زهر الآداب للحصرى - جـ١ - ص٣٦ - ص٣٧ وص٦٤

٩١- المرزبانى أبوعبـيد الله محـمد بن عمران بن مـوسى: معجم الشـعراء - تحقـيق عبدالسـتار أحمـد فراج - ط دار إحيـاء الكتب العربيـة عام ١٣٧٩هـ -

١٩٦٠م - ص٢٣٢

٩٢- ابن قتيبة الدينورى: الشعر والشعراء - ط دار المعارف - جـ٢ - ص٧٠٤ - تحقيق أحمد محمد شاكر. وورد كذلك فى البيان والتبيين للجاحظ - جـ١ - ص٢٣١.. وروى بيت على لسان أحد الشعراء، وهو:

سمعن بهيجا أو جفت فذكرته ولا يبعث الأحزان مثل التذكر

فى البيان والتبيين جـ١ ص٢٩٨ وفى الهامش أن البيت لليلى الأخيلية من قصيدة فى الأغانى جـ١٠ - ص٧٢.. ووردا كذلك فى (عيون الأخبار) لأبى محمد عبدالله مسلم بن قتيبة الدينورى (ت ٢٧٦هـ) ط هيئة الكتاب ١٩٧٣ - مجلد ١ جـ١ ص٢٧٨

٩٣- ابن عبدربه: العقد الفريد - جـ١ - ص٣٢٢ - ص٣٢٣

٩٤- الحصرى القيروانى: زهر الآداب - جـ١ - ص١٢

٩٥- د.مصطفى الشكعة: الشعر والشعراء - ص٤٥٥ - ص٤٥٦

٩٦- المصدر السابق - ص ٤٥٧ - ص٤٥٨

٩٧- المصدر السابق

٩٨- جليلة رضا: ديوان (الأجنحة البيضاء) ط يناير ١٩٥٩ - الشركة العربية للطباعة والنشر - ص٥٢

٩٩- نفس المصدر - قصيدة (ضعف المرأة) - ص٤٠

١٠٠- روحية القلينى: ديوان أنغام حالمة - ط وزارة الثقافة والإرشاد القومى - المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - بدون تاريخ.

١٠١- «أنغام حالمة» - ص٤٩

١٠٢- هالة فهمى: ديوان «إلا إليك» تحت الطبع، وقد نشرت هالة بعض

قصائدها فى (المساء) و(الزمان) و(الأهرام المسائى).. وهى معروفة كقاصة وقد صدر لهـا مجمـوعتان: (للنسـاء حكايات) فى سلسلة «إشراقـات جديدة» عن هيـئة الكتـاب عام ٢٠٠١ و(ربع رجل) عن هيـئة الكتـاب أيضا عـام ٢٠٠٢.. بالإضافـة إلى مجمـوعة مشـتركة هى (أجنحـة البوح) فى سلسلة كتـاب الجيل الجديد.

١٠٣- د.نجـوى عمـر: ديوان (أغنيـات عـروس الوادى) - صدر علـى نفقـة الشاعرة - عام ١٩٩٨ - ص٢٠

المحتويات

الفهـــــرس الموضـــــــــــــوع	الصفحة
● حريم.. لماذا؟!	٣
● أصناف:	٧
- عذراوات	١٣
- زوجات	١٥
- أمهات	٢١
- عاشقات	٢٤
- بنات	٣١
- ضرات	٣٤
● محرضات على المصائب	٣٩
● حكيمات	٤٩
● بخيلات	٦٣
● الكذب منهن وعليهن!!	٦٩
● مغنيات:	٧٧
- أم كلثوم.. الأصل والصورة	٨٨
● طبقات: مطربات.. مغنيات.. مؤديات	٩٥
● شجاعات.. مقاتلات	١٠٥
● شاعرات:	١٢١
- الجدات	١٢٣
- الحفيدات	١٣٥
● الهوامش	١٤٩
● صدر للكاتب	١٦٠

صدر للكاتب

● فى الشعر:

- فصل من التاريخ الخاص (ديوان).. هيئة الكتاب ١٩٨٩
- الميلاد غدا (ديوان) هيئة قصور الثقافة ١٩٩٦
- اليوم العاشر (ملحمة).. هيئة الكتاب ١٩٩٣
- مذكرات فلاح (ديوان).. هيئة الكتاب ١٩٩٩
- وهج (ديوان) مكتبة الأسرة.... ٢٠٠٠
- اليوم العاشر (طبعة ثانية) مكتبة الأسرة ٢٠٠١

● فى الدراسات الأدبية:

- مع الضاحكين (فى الأدب الساخر).. مكتب أوزوريس ١٩٩٥
- ديوان القاهرة (دراسات نقدية وتاريخية).. صندوق التنمية الثقافية وهيئة الكتاب ١٩٩٨
- المغترب (حوار جيلين).. هيئة الكتاب ٢٠٠٠
- الإبداع الجديد وقضايا المجتمع (دراسات نقدية).. هيئة الكتاب ٢٠٠٢
- مع الضاحكين (طبعة ثانية) مكتبة الأسرة ٢٠٠٢

● فى المسرح:

- بنات للبيع.. هيئة الكتاب ٢٠٠٢
- ابطال قهوة جداليا.. هيئة الكتاب ٢٠٠٥

● تحت الطبع:

- السيادة اللغوية (دراسات)
- شىء ما بيننا (ديوان)
- زمن العيال (مسرحية)
- إلى سلوى (رسائل أدبية)
- الشدو الأخير.. لطيور سيناء (مسرحية)
- الزعيمة سارة تقود الثورة (مسرحية)
- آنسات نادى القمر (مسرحية)